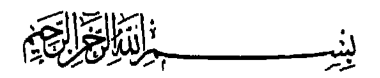
عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

حاطب ليل ضجر

٢


بسم الله الرحمن الرحيم


حاطب ليل ضجر


٢

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 25779G

حاطب ليل ضجر

عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

دار الشروق

قــراءة في (حاطب ليل ضجر)

للأستـاذ الدكتورحسـن ظاظا

لا أستطيع أن أقول إننى (أقمت) مع هذه الخواطر فى مكان ما من آفاق النفس البشرية . لقد كانت تأخذنى دائماً فى رحلاتها المستمرة ، فأرانى معها مصعّداً مصوّباً فيما لايكاد ينتهى من دروب الفكر ، ومسالك الروح ، وشعاب الوجدان . أشعر أن ما كان ، فى القديم ، فيافىَ ومفازاتٍ ، وواحاتٍ وجناناً ، وما كان فى لهيب القيظ سرابا ، وعلى سماء الدجى نجوماً ، أو رجوماً ، قد ترك عالم الصخر والماء والطين ـ تحت قلم هذا الكاتب المقتدر ـ ليتجلى فيما وراء المادة الكثيفة الثقيلة روحاً نورانية شفافة ، تسبح فى ملك الله اللانهائى ، تشق أمواج الزمن الصاخبة المتلاطمة ، تريك كل دقيق وجليل ، وتقف بك على أطلال الفكر السابق التجهيز ، وعلى رسوم العيش المحدود بالجدران والأسوار ، وبتواضع ساحر يتسلل إليك صوتها أن انطلِقْ يارجل !

وكدت أولاً أن أقول إنها ذكرتنى بكتابات الحكيم الرومانى (ماركوس أوريليوس) ولكن .. صحيح أن الحكيم الرومانى يلتقى مع كاتبنا العربى فى أنهما لم ينبهرا بما فى متناول أيديهما من متع الدنيا ،

وصحيح أن كلا منهما قد أخذ من البلاغة بناصيتها ، ولكن .. ولكن الحكيم الرومانى مقيم حيث هو ، بينما الكاتب العربى ظاعن باستمرار ، يضرب فى مناكب الأبدىّ والفانى ، ويسيح فى مساحات شاسعة من التأمل ، ويقف مندهشا دهشة الفنّان الموهوب أمام معارك الجسد والروح ، وصدام المظهر والجوهر ، ومعه عند كل وقفة ملء عينيه من علامات الاستفهام .

وهو يعبر عن ذلك كله بصدق عفوىّ عميق ، تاركاً لقارئه أن يحكم بما يرى ، وأن يعتقد مايشاء ، لأن قلمه قلم حر ، يدرى أن كمال حريته فى أن يترك الآخرين كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، لايملى على أحد منهم رأيه ، ولايقول له خذعنى ، أو اتبعنى وإلاّ .. بل يكتفى بأن يبوح بذات نفسه ، وأن يدعوك لتكون رفيقه فى رحلات الاغتراب الفكرى التى يطوى بها أديم الحضارة والبداوة ، وأرجاء الماضى والحاضر جميعا .

لذلك أعرضت عن مقارنته بحكيم الرومان ، الذى يشير إليك بالجلوس معه ، ليضرب لك الأمثال ، ويسدى إليك الحكم والوصايا ، ولايكاد يتوقع منك أن تناقشه فيها .

نحن إذن هنا أمام مذهب فذ فى فن الأدب ، اكتسب هذه الصفة النادرة المثال ، العزيزة المنال ، من البساطة التى لايقدر عليها إلاّ من جاءته هبةً من السماء .

وأعجب من ذلك هذا الالتزام الخلقي الذى ينساب كالماء الصافى من النبع . فالرجل لايقول لنا إنه فاضل أو كامل ، ولكن قارئه لايشك فى ذلك لحظة واحدة ، لعمق احترامه لكرامة الإنسان ، وغيرته على حريته ، وحرصه على أن يكون العدل والبر والخير عند البشر اختياراً لا إجباراً واضطراراً . وصدقه فى الإفصاح عن ذلك واضح مباشر.

هناك أخيرا ـ وليس آخراً ـ الالتزام الفنى . فالكاتب لايغيب عن فكره الظاهر والباطن أن الكتابة عمل ، وأنها كأى عمل من أعمال الإنسان الهامة شرطها الإتقان . هو الشيخ العربي الكريم الذى يرى أن الكتابة دعوة ، ووليمة ، وزاد فكرى وروحى ، ومن تمام الكرم أن يتأنق فى تقديمها ، لكى تجتمع لها الدسامة والجمال .

وبالالتزامين الخلقى والفنىّ، النابعين من الصدق والأصالة والعفوية والتواضع ، يرمم الكاتب صدوعاً فى أدبنا العربي المعاصر، ارتكبها المتصنعون والمتسيبون على السواء .

د. بدر الدين... (توقيع)

أستاذ العلوم اللغوية

بجامعة الملك سعود بالرياض

على جنــاح الســراب الخــادع

أبــويّ :

أأحذف بحجر الجبل كل المارين به لأنه ما فكر واحد منهم أن يصعد ويرتفع إلى قمته ليرى منازل العقبان كيف هى وبمَ توحى إلى من صعد إليها ... ؟

ما أكثر ما جرجرت نفسى فى اتجاه الصعود ، ولكن السيقان التى لا جناح لها كجناح العقاب عجزت أن ترفعنى إلى فوق ، ومن سفحه جلست أخط هذه الرسالة والخوف يحيط بقلمى من تداعى أحجار الجبل عليه فتحطمه وتحطم يدى التى تحمله ... فأفواه العبر فى أفواه القلم وعضات السبع لا شىء بالنسبة لعضات القلم فهو الذى إذا عض أوجع وإذا وعظ أبكى !

فالإنسان والحياة والقلم عائلة واحدة إذا أرسلته الحياة ليرتاد لها منازل الغيث فى الإنسان وعاد إليها بالخبر قد يتظاهر السؤال . هل ما جاء به يحمله على أكتاف أمينة ، أم أن للقلم روغاناً كروغان السراب فى جمجمة إنسان ضلله وقال له عد بهذه الصورة أو بهذه

الصور وسجل على ذمتك ما جاء من ذمتي ، أدل بشهادة زكية أو حانثة بالعهد أو شاهدة بالزور ، وحتى لا أتجاوز نفسي فى مثل الحالة التى ظللتنى بظلال من الكآبة يوم أعجزنى الصعود وقعدت جريحاً أقول : قد يكون ما أكتبه الآن من ألفاظ حقنها فى القلم جرح عميق ينزف بالدم القانى على إحساسى وشعورى اضطرابا تفيض عرصاته على فم القلم بمثل هذه المبارك من الآلام التى لم تسترح فيها مطايا ظامئة وجائعة .

والسؤال الذى تثيره اللحظة : هل من إنسان على هذه الأرض استراح وطابت له منازله .. ؟ لا أرمى حبل الأمل على رقبة الإنسان وأغتال فيه الجميل ، ولكنى أتساءل تساؤل إنسان مدَّيده عبر الزمن فلم يجد من قال له إننى مستريح وآمن داخل ذاتى ، غير القليل جدا من البشر وهؤلاء القلة النادرة هم فى تقديرى الشموس والأقمار التى فى غيابها من أفق الحياة تضطرب فينا نحن البشر العاديين ـ حاشية ذاتية إذا غيمت عليها سحب داكنة وحجبت الضوء الذى يصدر عن عقول هذه القلة من البشر ووجدانهم اختل توازننا وتداخلت خطانا وصرنا فى حالة من الفوضى النفسية لا نستطيع أن نميز بين قمة الجبل وسفحه ! .

وغربة الكلمة وهزالها هنا هما من غربتى ومن نحولى ، كلما وردت

غديراً وملأت منه قربي للسفر وظننت أن القرب حافظة لمياه الغدير تبين لى أن الظن ضللنى ، ولكن متى ... ؟ عندما أكون وسط الفلاة أعانى من الظمأ فإذا عدت إلى قربي التى ظننت أنها أمنتنى من الخطر وجدتها فارغة لأنها قرب بالية ومليئة بالشقوق فقد تسرب منها كل ما حقنته فيها ، ولم يبق لى قطرة واحدة وعلى جناح السراب الخادع أنخت جملى وساءلت السراب لماذا أنت مخادع لإنسان ظامئ مثلى .. ؟ أأنت الذى تلون حالتك أم أن الذى يلونها ويلون كل الأشياء فى قيعان الأرض أو فى قيعان مجرات الفضاء هو عقلى المشوش وذهنى المصاب بالصداع والذى لا تفيد معه كل المسكنات ؟ لا أرتاب أن للسفر نهاية ، ولكن بعض المسافرين هم الذين إذا بركت جمالهم فى أثناء الطريق قالوا مالنا ولمواصلة السفر فكل الذين مشوا عليه وراحوا ما عاد منهم واحد نسأله أبعيد أم قريب ما نسعى إليه ...؟ وهذا الهزال فى مطاياهم وفى تساؤلاتهم قد يجفف ضرع المطايا وضرع السؤال ، ولمن يعيب علىّ بقائى ملتصقاً فى أكثر التساؤلات بالسير على قدمىَّ أو على ظهر الجمل أرحل من واد إلى آخر ، ومن جبل إلى جبل يعذرنى لأنى من نزلاء الصحراء ملتصق بها كالتصاق جبالها على جبهتها . فإذا حملت معى تلك الجبال وتلك الرمال وطوفت بها فى عوالم بعيدة على جناح الخيال أو على جناح

العلم الذى ما ركبت جمله وما ركبه اليوم أحد من قومى ولكنى ممن يلاحق ظله فى الأرض وهو فى الفضاء وما بين جناح الخيال وجناح العلم لا أهوى القعود على حجر قذف به بركان فائر من جوف الأرض وأقول : مالى وللحركة ، أى حركة ؟ نعم إذا حملتها فلأن خصائص أهلى وقومى راقدة فيها .

لو تنازلت آدميتى وكبريائى لعوالم الأتربة والأحجار وأذهلنى جناحها الذى صار يحوم فى الفضاء اليوم ولم أع أنه جناح طوته فى جمجمة الإنسان وأودعته فى وعيه يوم الرحيل الأول يد الكدح والمكابدة أترانى ذاك الطفل الذى حمله الطين فى جوفه ثم حطه ولم يرضعه لباناً من الروح والوجدان ، فنما نمو كثبان الرمال ، كفنه ونعشه منها جنازة أثقلت عاتق من حملها أو يحملها إلى المدفن تراب عاد إلى التراب عند فكرة العدم وعند من أذهلته وتذهله هذه الحركة والمتغيرات التى أمسك الإنسان بذيل قافلتها وظن أن هذا إعجازه وابتكاره وإبداعه وكبرياؤه ، مثل هذا المعتقد أو هذا التصور الذى عقل بعقال من الغرور والتعالى جنائز بشرية ظنت أن جناحها الذى رفعها إلى فوق جناح لاتهيضه يد القدر ولا تقبض عليه هذه اليد أينما كان مكانه وزمانه ، ثم تسلمه إلى قدره المحتوم مع هذه الحياة وما بعد الحياة .. فلا فناء ولا تراب تذروه الرياح فى الفضاء أبداً بل يقظة من

حلم أو ملهاة لزائر سرعان ما تنتهى هذه الزيارة وتعود زائرة البيت أو زائره إلى المكان الذى فى ساحته ميزان العدل قائم وحاكم بين البشر .

وتراب الأرض الذى أمشى عليه لما بينى وبينه من نسب ما أكثر بره بى وما أكثر ما أعطانى ويعطينى من ضرعه ومن شحمه ولحمه ! ! ومن باطنه وظاهره ، ما أكثر ما فيه من جمال وما عليه من علامات طريق ، هذا التراب الذى آكل منه ويأكل منى أذهب عنه بعيداً ثم أعود إليه عاجلاً ، لا أتجاوز عنه عتبة المدفن ، وإنما التى تتجاوزه هى التى حيرت الإنسان وتساءل عنها طويلاً ، سال عنها الإنسان النبى والرسول وسأل عنها المفكر وعالم المادة فلم يأته الجواب بل ظل دفينًا فى سريرة الغيب باقياً فيه إلى يومه الموعود .

وما هذه السفسطة وهذا الهذيان الذى تفيض تلاعه على واديه بمياه لم أجد لها مخرجاً أو متنفسا إلا ساقية القلم ، وهى ساقية كدرت مياهها عذوبة الألفاظ فيها . لم تأت مياهها من سحب السماء ولكنها آتية من سحب نفسية لم تسكن رياحها ولم يلذ لها المبرك فى حانة ساقيها ينادى تعالى إلى لأخدر عقلك ومداركك وأجعلك ترين الدنيا فى لذة الجنون بالتخيلات ! كم سألت نفسى أين المبرك الذى إذا أنخت فيه جمالى طاب لها ولم تنو الرحيل عنه ؟ فجاء الجواب معربداً بثقل المادة سكران بنشوة الحياة فيه وعلى جناح الألم الذى لم يستطع

رام أن يهيضه بمقدار لحظة من اللحظات فيسعد بلحظته أو بيومه علوت على جناحه سعياً وراء مكان مريح فى هذه الدنيا الواسعة نزلت ضَيْفاً على قصرَىْ كسرى وقيصر ثم تجاوز بى هذه الجناح بيتى الذاتى وراح بى بعيداً إلى بيوت الآخرين فى هذا العالم . أسأل كل بيت طرقته خلال ستين عاماً هى عمرى الآن أأنت مستريح وآمن ... ؟ فما وجدت من قال لى تفضل ففى بيتى الأمان ، كل يرتعش من الخوف ، فقدرت أن هذا قلق العصر ومزاجه الخاص فرجعت إلى الخلف ومشيت بعيداً فى أعماق الزمن أفتح كتابه وأسأل خرائبه واحدة واحدة ماذا عنكم فأقرأتنى الخرائب وأقرأنى التاريخ ما قالوه شعراً أو نثراً عن آلامهم وحسراتهم ، وكذا إذا دخلت بيتى وتحلق حولى أطفالى أو خرجت إلى الشارع ورأيت أطفال جارى فى جمال الورود تراءى لى الخريف ، وهو يهز الشجرة فتتساقط أوراقها النضرة ذابلة ذبول هذه الورود فى غدها ، فما هذه الابتسامات إلا فى هذه الطفولة والأمنيات عندى حائرة الآن بين الطفولة والشيخوخة ، وما سلكت طريقا ليخرجنى من هذه الحيرة إلا وجدت زحام الحائرين عليه لم يتركوا لى مكان قدم واحد أقف معهم فيه فى الصف ، ولكن الشىء الذى يعزى إنسانا حائراً مثلى إذا وقف أمام الغدير انصرف عنه وهو ظمآن لأنه فى غده غيره فى يومه ولا يتجاوز

بي اليأس والظمأ والجوع والألم إلا غدير لا تجففه الرياح ولا تتخلق فيه الديدان وهذا الغدير ليس من مياه السحب الذى يهبط على الأرض ليحيي مواتها لحظة ثم يتبعها بالفناء رياحاً تكنس الحياة وأخرى تعيدها فى دورات لا تخلف الميعاد ، فغدير النفس الذى ما ظمئت مطايانا إلا لأنها تائهة عنه قليلا ما اهتدت إليه فوردته !

فإذا كنت فى هذه الرسائل أحاول أن أهتدى إلى هذا الغدير النفسى فوجدانى الظامئ إليه لا تروى عطشه كل مياه الأرض وبحارها إذا لم تكن الساقية أو الساقى من يد سليمة ، فلولا هذا القلم الهزيل الذى أحمل عليه ، كما أحمل على جملى فى الصحراء ـ يوم كان لى جمل ـ أحاسيسى ومشاعرى وآلامى وتصوراتى فى لقاءاتى مع نفسى ومع ما هو خارج هذه النفس إن كان على هذه الأرض أو كان بعيدا فى أفق الكون ، لخلت منازلى الذاتية من آدميتى ومن إحساسى بهذه الآدمية ، وإذا خلت منازل إنسان منها فماذا يبقى فيها غير الحشرات والديدان ؟

والإحساس بالمسؤولية إذا أعتق من رق العبودية التى تباع وتشترى بالثمن البخس يتجاوز به الإنسان وعورة الطريق الذى تقف على جنباته علل وأمراض ذاتية ، فالشموس والأقمار والزمان والمكان وكل الكائنات فى إشفاقها من حمل المسؤولية التى حملها الإنسان

اختياراً ، لا تتداعى على ضمير الإنسان ثقلاً وظلمة وتكوراً إلا حين يتكور هو على نفسه وتضيع من يد ذهنه وعقله ووجدانه ذكريات ذلك اليوم العظيم الذى فيه خلع قلب كل الكائنات وقال : أنا لهذه الأمانة . أقبلها اختياراً ، فإلى الطريق الذى أكابد فيه وأكدح بعقلى ووجدانى وروحى .

وهنا ينهض السؤال من أعماق البعد الزمنى يسائل الإنسان : ماذا أنت عليه من هذه الأمانة ؟؟

لكل إنسان تفكيره وقلمه ، ولكل إنسان جناحه أو قدمه ، لهذا كثيراً ما تحاشيت الخوض فى نفس غير نفسى أو سلوك غير سلوكى أو ذكريات غير ذكرياتى ، ومن لاحت لى ملامحه وقالت لى الظروف والأحداث ألحقنى بقافلتك الذاتية ، فإن النسب واحد والعائلة واحدة أبكانى ما أبكى قلمى عليه يوم زار خرائبه الذاتية وحاول أن يخفيها فى خرائب الطين والحيطان فقالت له قوافل التاريخ التى تقوم برحلاتها من جيل إلى جيل سأحملك على أكتافى وإن أثقلتها بأفعال غير حميدة !

الحرية ماملكها الطير

أبويّ :

لماذا تجاوزتُ ركام التاريخ وفلول أخباره ؟ لماذا تراءى لى من بعيد جاذب ينادى روحا ظامئة إلى الحقيقة ؟ أتساءل لا لأكسر قدح النفس وأريق مافيه من بقايا أمل على رمال الخمول والكسل الذهنى ، فالتساؤل على الدرب الطويل فيه مدخل إلى فجاج قد تكون الرحلة إليه مضنية وشاقة . وما من إنسان ـ طفلاً كان أم شيخاً ـ تجاوز صدر أمه أو أبيه فوجد المكان المريح .

فإذا نزعت بى نفس عذبتها الدهور السحيقة وأربكت خطاها وأثقلت كاهلها صخورها فإلى أين أتجه ؟ لا أجد غير من أبقانى هنا أمشى فتظلع قدمى أو تستقيم وإذا تساءلت لماذا هكذا ؟ لحقت بى آدميتى التى أكرمها الله ولا متنى على جزعى ثم بنت لى من التجربة والمكابدة آمالاً عظاماً فيظل تصبب عرقى وتظل معاناتى على الدرب الذى أمشى عليه حالمة بالصباح مثنية على قوس قزح الذى اعترض فى سمائه وما تاهت نفس وبددها السقم إلا لأنها ظلت فى مبركها جثة

لا تنوى السرى فى كون كل ما فيه مدلج فى سراه .

فهذا القطيع يمشى على جنبات الصخور ، والنجوم ترعاه كما يرعى الرعاة أغنامهم ، ألا أقف أسائل الراعى ، وإذا لم يجبنى أسائل الأغنام : أهذا الجبل ميت لا حياة فيه ؟ أم أنه حياة فى سنام الجمل أو فى قطيع الراعى ؟؟ لا شىء فى هذا الكون لا دور له ولا رسالة مع الحياة والموت . فالتراب الذى نمشى عليه ثم نعود إليه ماكان إلا نحن . هو زرعنا وهو حصادنا وهو خبزنا وهو الجمال الذى فى الزهرة أو فى أختها الجميلة . فما عشق قيس لليلى فى جناح الجبل إلا صداه فى وجه الجميلة فلو عمقنا الملاحظة وسرينا على جمال من الوعى نقص أثر القبائل الكونية واحدة واحدة ولا نتجاوز حبة رمل من رمال الدهناء لما فقدنا الاستقرار ولما تصعدت أنفاسنا من ثقل الهموم وتراكم الأطيان على عاتق النفس . لا أكسر عظم الصبر مهما ضاقت بالنفس أصلاعى وكسرتها بين جوانحى آهات لا تهجع ولا تقبل بالاستراحة . فالحياة فى قدر الإنسان لا يمكن أن نستشرف لها الطريق الصعب ونحن مثقلون بقيود المادة والمفاهيم السقيمة ، فما تجاوزت ركام التاريخ وفلوله إلاّ لأن أكثر ما فيه طعنات وخناجر ودماء ، وهدم وسطحية بلهاء . مارسها من مارسها وهو يمشى فى اتجاه الفناء على عجل ما قدّر دوره . ولا عرف نفسه . ولا أعطى الحياة غير

الشقاء. ومن هنا رجعت إلى نفسى لأن فيها ما فى الزمن البعيد والقريب ولأن فيها الصور التى إذا قبض عليها الوعى لا تكذبه ، فهى المؤرخ وهى العقل ، وهى الصواب وهى الخطأ. لا أنبش مدفنا غير مدفنى الخاص ولا أقيس ذاتى بمقياس عمرى القصير. فمقياس النفس لم تكونه لحظات العمر ولكنه مقياس تساءل عنه أكثر البشر فتكور السؤال لتكور الجواب ، والذين لم يتكور فى أيديهم سؤال أو جواب عنه هم القدوة لنا ، وهم الذين نبكى دما وحرقة على أن نلحق بهم فنكون حاشية ، كم تساءلت وكم أضجرنى السؤال الذى لاجواب عنه لماذا يتجاوز الإنسان قدره ويذهب بعيداً وراء الفراغ تغريه الحياة وترخى له الرسن فيظن أنه فارسها وأنه سيدها فيقع فى خطئه الفاحش؟ لا أدرى ، ولا أتعالى عليه فأقع فى الخطأ ، فمن التجربة تعلمنا أن التعالى والغرور أمراض خلقية لا يتبينها الإنسان إلا حين تكشف العلة الخطيرة عن سقمها معلنة عنه روائحها الكريهة.

والذين يتجشأون عللهم وأمراضهم على دروب البشرية ولا يمشون لحظة فى دروب النفس أنثق بهم؟ أنتصور أنهم جاءوا ومعهم الربيع؟ لا أقص بقلمى الردىء هذا جدائل جميلة وأصيلة جدلها العقل والوعى فغطت عاتق العرى الذهنى ، وعلى قدر ظمئى إلى الحقيقة أمشى لعلى فى سيرى محدودباً على حاشيتى الذاتية

أسائلها عائلة عائلة : أفى إمكانى أن ألحق بشىء يفتح لى باب الأمل ولا أمل لى إلاّ أن يكون لى من تعبى ومن حثى السرى ليلا ونهارا فى أول الطريق أو فى آخره شجرة أستظل بها فى ظل الله . وحاشيتى الذاتية لا فقه لها ولا مسار إذا لم تمش فى مسارح هذا الكون وتناج طفلة الحى الصغيرة مثلما تناجى طفلة تمشى وراء أمها لاهثة فى كون واسع . فأطفال النجوم كم يتراءى لنا أنَّ لهم أمهات ولهم قبائل وقادة يدورون فى فلكهم ، لا أطرح نفسى فى مثل هذه الألفاظ على عوالم تسبح فى الفضاء ما لم تسبح وراءها نفسى وروحى فى تأمل قد يتعثر وقد ينكسر جناحه ، ولكنها المحاولة ، وإذا كانت النجوم البعيدة لا تلحق بها قدمى ، فما أنا عليه الآن وما هو معى ولى من هذه الكواكب هل عرفت عنه شيئا ؟ هذا هو السؤال الذى يجدع أنف القلم انكساراً لا نكسار جناح الجواب . فإذا خرجت من عزلتى الطويلة فلا أدرى أفجرى مع الصباح كاذب أم ماذا ؟؟ ومن يضلله فجر كاذب عن الصباح ألا نشك فى قدرته على الرؤية ونقول له لا تمش وحدك ! امش مع القافلة فأنت محدود البصر؟ أستحى فى هذه اللحظة من نفسى التى أحكى عنها وأتظاهر كتظاهر الفجر الكاذب أنى رائد مخلص فى ريادته لها . فما الألفاظ العائمة عندى أو عند سواى غير نصب الفخاخ على طريق ما وقعت فيها واحدة من

الجميلات ، فالجميلة من بنات الذهن لا تهبط على خرائب تهدمت حيطانها حتى لم يبق فيها غير الوحشة والظلمة .

وهنا أطوى أوراقى وأعتذر لقفار الصحراء إذا طويت خيمتى وركبت راحلتى عائدا على غير اختيار ، فالحرية ما ملكها الطير وإن كانت القفار منازله ، وسماؤها ملاعبه ، أقدار وظروف لا نقوى على تجاوزها وإن بركت لنا مركبة الفضاء وقالت : هناك فى النجم البعيد أستطيع أن أهرب بكم عن أوجاعكم .... !!



فى أعماق الذات ضيف

أبـوىّ :

ما أكثر ما حملت قلمى وخرجت إلى عالم البشر من مضى منهم وصار تاريخه نعشاً له ومن يعايشنى وأعايشه ، وكل من صوبت قلمى إليه لأصطاد منه عبرة أو عظة قال لى : رد قلمك إلى جيبك لا تصوبه فى اتجاهنا حّوله إلى ذاتك فعلى أشجارها وعلى سفوح الجبل فيها وقمته وعلى مياه الغدير فيها أو المياه الآسنة أطلق رميتك وصوبها إلى كل بعيد منها وقريب ، وإذا هى جفلت أسراب الغربان أو بوم الخراب فيها من صوت البندقية ولاذت بالظلام فأسرج حصان وعيك واقتحم الظلام فى شجاعة من اقتحم على كسرى وقيصر قصورهما المترفة ، وإذا تساءلت عنه من يكون ، نقول لك : إنه الإيمان ، فالذين أرسلتهم يثرب حملوا معهم إيمانهم بكرامة الإنسان وعدالة الله فى الأرض إلى كل الدنيا ، لِنُعِد ولنكرر ولنجهر فى وجه هذه الحضارة وهذه المدنية التى ركبت الجناح ، ونقل لها غداً أو بعد غد ستكونين جنازة يحملها النعش عظة لمن يبحث عن الموعظة !

ولمن غاب عن ذهنه الكفن والنعش الذى حمل كل حضارة إلى مدفنها وحثا عليها التراب أهمس فى سمعه أن استيقظ إن كان نائمًا وأبصر كيف تداعت شامخات القصور وشامخات الأنوف .. وما دعوتُك فى هذا إلى أن تحفر قبرك وتحمل كفنك فى انتظار قدرك . فلو دعوتك لمثل هذه الحالة لكنتُ مذنبًا فى حقك وفى حق عقيدتى وإنسانيتى ، ولكن لنقل لحفار القبور أحفر قبورنا وأحضر لها حاجات المدفن وانتظرنا حتى يرسلنا أجلنا إليك ، ونظل مع الحياة فى كدح ومكابدة ونأخذ فى أمانة السلوك الكريم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا وما لم تستطعه بشريتنا وآدميتنا نستغفر الله عنه ونتفاءل برحمة الله ...

ما أكثر ما حاولت أن أشيح بوجهى عن كل ما فى هذه الحياة من دمامات تبعث التشاؤم وأتجه إلى كل ما فيها من جمال روحى وحسى إن كان فى الطبيعة أو كان فى الإنسان أو فيما هو بعيد عن تصورى له كيف جمّاله . ولكننى أرفع له رأسى فإذا هو قمر منير وإذا هى شمس مضيئة وإذا هى نجوم باسمة وذات حركةٍ كحركة قوافل الصيد . وعذرى فى مثل هذا التشبيه أننى من عرب الصحراء أخيل السحاب وأخيل كل صورة لاذت بذهنى وقرت فيه أستقبلها من حيث أتت دون أن أقول لها : قفى من أنت .. لو تعاملت مع الحياة فى تزمت وعصبية ووحشة لصار ذهنى غابة من الوحوش والصور

الدميمة .. فإذا سجدتُ لخالق هذا الكون فسجدتى فى هذه الحالة التى يخطها قلمى هنا لم تكن سجدة رجل صنع صنمه بيده ثم سجد له فى هَبَل ما بعده هبل ، وما أكثر الذين يصنعون أصنامهم ويسجدون لها فى عالم البشر.. فكل سجدة لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ممزقة للحشا مذلة للجباه موزعة للاستقرار آكلة للأمل قاطعة لحبله !

إذا اختلطت علينا الصور وضقنا بها وبما فيها من متناقضات ونحن معها نعيش فى بيت واحد وعائلة واحدة أنفتح الأبواب على مصاريعها ونخرج منها مخلفين وراءنا تناقض البيت وعلله وصوره المعلقة على حيطانه ... ؟ تساؤل لم يأخذنى إلى طريق ضنك لا مخرج منه أبداً ، لوركبت ظهر التساؤلات وأركبتنى الغواية مركباً وعراً وقدمت لى الحياة مما فيها من ملذات وحطت بيدى قلمًا غير نظيف وأسقته من مياه كدرة ، ماذا عنى وعن إنسانيتى ؟ فالحياة التى جئت ضيفًا عليها مثلما جاء غيرى ممن لا نعرف زمانهم ومكانهم فى سرمدية الزمن لا أضع لها فى ذهنى صورة ميتة ولا أكفنها بكفن ابن يومه أو شهره أو عامه ، وأقول : هذه هى الحياة ولا شىء بعدها . فدربى الذى مشيت عليه إن كان على قدمى أو على معدتى أو على غريزتى أو على ذهنى تعود بى ذكرياتى إليه فأتساءل ماذا حققت ..... ؟ ماذا

بيدى الآن..؟ لاأجد فى يدى غير الفراغ لأن وجدانا ظامئاً قليلاً ما أوردته غديرًا حطته سحابة أثقلتها الرياح بالمياه الغزيرة .

ولى مع الحياة رحلات قليلاً ما أنزلتنى عن ظهر القتب ، وقالت لى : هنا أنخ جملك ولا تواصل السير فيضنيك التعب ! ولأن مطلبى ومسعاى إليه لا يستقبل مثل هذه المشورة استقبال بخيل نزل عليه ضيف من كرام القوم فانخلع قلبه وقال لربة بيته أغلق الباب دونه ، أرفض أن أكون قعيد حاشية لا تهوى السفر ولا مطلب لها غير مطالب التراب !

فرسالة الإنسان على هذه الأرض ليست فى هذه الحيرة أو فى هذه الحركات التى يقوم بها أكثر البشر بشكل يتراءى للناظر إليه أن الدوار العنيف مخلٌّ بتوازنه . وجاهلٌ مثلى قد يعترض طريق الماشية على سبيل من السبل وليس بيده ضوء ينير به الطريق لمن يخطو عليه كيف به والاعتراض ؟ وما الحكم عليه ؟

أأنا فى هذه الرسائل أحطب من واد تخطاه الغيث أزمنة طويلة فماتت فيه أشجاره وهاجرت عنه كل الطيور التى تبنى أعشاشها فيه آمنة من قناص يغتال أم الفرخ الصغير ويغتال من تحتضن بيضها فلم يمكّنها من أن يكون ما فى البيضة فرخاً ثم طائراً جميلاً يغرد فوق فروع الشجرة .. ؟ لا أنفى هذا التساؤل عن نفسى ، فالوادى الذى

أخط منه هذه الرسائل لم يكن من أودية الصحراء التى يجود عليها الغيث فى كل عام ولكنى أخطها من واد نفسىّ ركبتُ فيه جناح الخيال وسرت أقص أثرى فى الرحلة الزمنية معه فلم أجد لى أثرًا واحدًا يهدينى إلى بُعد انحدرت منه . ويوم عدت من الرحلة متعب الخطى ، فاشلة ريادتى لم أرم حذائى وأعف ظهر جملى وأقل لواد هُرعت إليه شابا ثم عدت منه شيخًا محدودب الظهر ، ليس معى غير الأمل الذى أخذته عصًا أتكئ عليها ، أضنيت قلبى وعقلى وروحى فلا عودة ولا بقاء معك ! ؟ لن أقول هذا أبدًا ولكنى سأحاول أن أزرع فيه أشجارى من جديد وأسقيها ماء وعيى ما استطعت ، والاستطاعة ، هل فى مقدور الإنسان أن يقبض عليها ويمتلك خطامها .. ؟ لا أتجاوز بذلك الأمل إلى اليقين ، ولكنى فى نّية المحاولة .

ونّية الإنسان هى ملك يمينه وهى مطيته التى تحمله إلى واد مربع أو إلى آخر ممحل لم يهبط عليه غيث ولا جاءه زائر ليفرش مصلاه فيه ويسجد لخالقه . ولكنه الوادى الذى قد تشتعل أشجاره وتحترق فيها النوايا المفلسة .

ومثل هذا التصور الذى لا أتجاوز به رحمة الله بالإنسان ولا أرى من حق أو حق سواى أن أختار لنفسى واديًا وللآخرين أودية ، ألوذ

دائما بكرم الله وبسعة رحمته وبجلال عظمته فى ذهنى ، وهى عظمة لا يحيط بها عقلى ولا فكرى ولا يعطيها من التصورات الطفولية بالنسبة لما هو فوق قدراتنا العقلية والذهنية ، أقول هذا وإن كانت كل ملامح هذا الكون الذى لا فراش له تنام عليه وتتمدد على قدر سيقانها كلٌّ سابحة فى هذا الفضاء ، فكوكبنا الذى نحن عليه قدّر العلماء حجمه وقبلنا بهذا التقدير ليضيف إلى إيماننا بعظمة الخالق إيمانًا لا تزعزعه فكرة العدم التى تخنق رقبة الإنسان .

قد يتساءل متسائل لم هذا الخوض فى بحار لا ساحل لها وعوالم لا نهاية لها ؟ وممن ؟ من بدوى عاش العزلة فى قفار الصحراء وقفار نفسه الممحلة ، قد يتساءل متسائل : أهذا الإنسان قد عرف وجه رسالته الصبوح المضيىء بهدايته وبعلامات الطريق إلى هذا الكون .. ؟ هل قَدَر الله حق قدره .. ؟ هل رفع رأسه إلى السماء متأملاً آخذاً فى ذلك بدعوة قرآنه ودينه ... ؟ قد يتساءل متسائل : أهذا الإنسان فى سلوكه وفى تعامله فى يومه وغده مع نفسه راضٍ عن هذه النفس .. ؟ وحتى لا أشق على متسائل حمل تساؤله على نيةٍ لا أسيىء الظن فيها ولا أجرحها أتوارى بالجواب عن كل هذه التساؤلات فى ستر الله .

مـــرايـــا الـــذاكـــرة ...!

أبـويّ :

كثيرا ما طرحت أمنياتى على فراش الألم وقلت لها ليته لم يكن لى ذاكرة !! ليتها هربت فى ظلام الليل وتاهت عن مكانها من نفسى !! ليت حائط النفس الذى ألصقت عليه الصور تهدم عليها حتى لايبقى صورة واحدة يفزعنى مرآها وتؤلمنى ذكراها !! ليت للذكرى طبيعة ناشزاً فتنشز نشوز فتاة لم يعجبها حليلها ولم تستشر فى قرانها منه !! ليت الذى أكابده مع الذكريات من إحساس لم يكن دفيناً فى رمال النفس يغط فى أحلامه فتوقظه فجأة حالة عرضت له فى أثناء الطريق ، ومتى استيقظ الإحساس والشعور على نداء الذاكرة التى يظن الإنسان أنه تجاوزت به السنون الطويلة مكانها وزمانها يخيب ظنه !!

فكل جميل أو قبيح سجلته الذاكرة فى دفاترها وصار فعلاً ماضياً ما للإنسان وماله ، فإن كان قبيحاً ظلت روائحه تزكم الأنوف ، وإن كان جميلا ظل يؤرقه ، وما هذه الأمنيات المتشائمة

إلاّ لائمات عبرن إلىّ من شعاب النفس ، كل واحدة منهن حاملة معها مجموعة من الصور التى كثيراً ما حاصرتنى فى مكان ضنك وعلقتنى من رقبة إحساسى وشعورى على خشبة من أخشاب الوادى النفسى ثم ذهبت وتركتنى وشيخوختى ، وليتها يوم ذهبت لم تعد ، ولكنها فى ذهابها وإيابها تجمع لى من مدافن الموتى وممن هو فى طريقه إليها صوراً ومواقف وحباً دفيناً فى أعماق النفس لمن هو دفين فى باطن الأرض .

ومرايا الذاكرة ليتها كمرايا أمهاتنا وأخواتنا يضعنها على الحائط ولا يلتقين بها إلا متى شئْن ، ليتها هكذا ! ! ولكن مرايا الذاكرة لا حائط لها غير حائط النفس نحملها معنا أينما سرنا نياماً أو أيقاظاً ! !

كم من عزيز أو عزيزة على النفس واريناه التراب ثم عدنا إلى بيوتنا نجفف الدمع ونعزى كل من بكى وطال نحيبه ، والعودة من مدافن الغالين علينا هل هى عودة بلا إياب ...؟ أبداً ما أسرع الإياب إليهم !

فى هذه اللحظة التى تداعت على ذهنى صور من الذاكرة لم يبق لى مكان أستريح فيه أو أتفاءل ، فالغالون علينا ومن قبّلنا جباههم وأنوفهم وشفاههم ذكوراً أو إناثاً هم جلسائى الآن كفنتهم الذاكرة فى كفن غير كفن القبر ، ثم دفنتهم فى مدافنها الخاصة بها ، وهى الآن

أخذت بيدى إلى هذه المدافن وأجلستنى بجانبها ومرت بهم على خاطرى واحداً واحداً أنثى أو ذكراً فى استعراض طويل مديد زمنه ، بعيد مكانه وما من دفين رثيناه شعراً أو نثراً فى تاريخ البشرية إلا جاء رجع الصدى لهذا الرثاء أحزاناً وآلاماً ، وما هذه الألفاظ الحزينة إلا رثاء لنفسى وللإنسان الذى يتزاحم بالمناكب من أمامى ، رثاء لا يؤجل يوما آتيا ولا يستعجله ، قدر لا ندرى أهو على عتبة البيت الآن أو فى أثناء الطريق آت على جناح السرعة ؟ شىء نجهله ونجهل معه وسيلة الفناء ، قد أستطيع أن أحفر قبرى فى قريتى بجانب من أحببتهم وأحبونى ، بجانب أهلى وقومى ، ولكن القدر قد لا يسير وفق سيرى وهواى ، قد يكون لى عنده قبر فى جوف طير أو فى جوف حوت أو فى مكان من الأرض ناء ، وهذه الحالة الغيبية لو حشرنا لها كل عرافى البشر وحكمائهم أو فلاسفتهم وعلمائهم وزرنا عيادة كل طبيب أن خبرونا متى أجل هذه الجنازة لوقف الجميع حائرين عاجزين عن الجواب !!

يوم يضطرب قلبى اضطراب طير وقع فى الفخ وأضع يدى عليه أهدئ من روعه وأحمله على جناح من الأمل والرجاء ، وأذهب به بعيداً وراء هذه الحياة ، ثم يرعوى لحظة أو لحظات ويعاوده الاضطراب ألا أتساءل عن مثل هذه الحالة القلقة ، وإلى من أتوجه

بهذه التساؤلات..؟ لأحد غير عقلى وروحى ورصدى الدقيق لحركة الحياة مع الإنسان !

وعلى هذا الطريق الذى تقف بى قدماى أرقب المارة داخل سككى الذاتية أو الشارع العام الذى تمشى عليه الحياة والإنسان تتسارع بى خطاى وتستعجلنى الحركة فى ذاتى أو فيما هو خارج هذه الذات إلى أن أحمل همومى وآلامى وأحزانى وكل ما تأتى به الذاكرة من مدافنها على كفى ، ثم أرمى بها فى بحر من التفاؤل فما المدافن فى مقابر الإنسان ذاته أو مقابر هذه الأرض عشوائية السير إلى الهموم واليأس والقنوط أبداً .. فما نعانيه لا يعنى إلا حركة الجنين فى رحم أمه ، ومتى أتم قدره الذى هو أجله فى رحم الأم وخرج من هذا المدفن إلى سعة الحياة قابلة التفاؤل وقابلته الرحمة على صدر أمه الرؤوم وهناك يكون الخلود والجزاء ! !

ما أكثر ما حاولت الابتعاد فى هذه الرسائل عن مشاكل الإنسان مع أخيه الإنسان وعن اختياره لسلوكه ولطريقه الذى يمشى عليه منستراً أو عارياً ، مقامراً بمثله وقيمه أو محافظاً عليها ، ولكن لأنى من هؤلاء لا أستطيع أن أكون فى معزل ناء بى عن الطبيعة البشرية ، لابد لى من الخوض فى زحام أنفاس الإنسان وعرقه ودمه وسلوكه لأنه لا طريق لى غير طريقه ، والذين أرادوا أن يشقوا طرقاً لأنفسهم

فى فلسفة التعالى أو فلسفة الهبوط إلى أقصى القاع ما أكثر حذرى من أن تنزلق قدماى إلى الحضيض مثلهم ، أو يأخذهما الغرور إلى التعالى وكلا الحالتين لم تدربنى عليها طرق الصحراء التى علمتنا الحذر وعلمتنا آداب السير ، وحتى لا يأخذنى الغرور فأقول لعقاب الجو أترك لى مكانك ، فإنى آت إليه بأكوام من الحديد الذى لا نفس له ولا عرق ولا دم ولا روح إذا أصاب جسده المادى وخزة من وخزات العقل البشرى الذى لم يستطع أن يقول لكل شىء صنعتُه اكتمل فلا خوف عليه من الخلل أو السقوط ، قالت له الروح وقال له الوجدان وقال له العقل على فم العقاب وجناح كل طائر يسبح فى الفضاء لايصبك الغرور فما أنت إلا أكوام من الحديد والتراب عائد إليه أينما ذهبت ! !

وما هذه الألفاظ التائهة على فم القلم فوق هذه الأوراق بجاملة لعلماء الفضاء غيرة منهم كغيرة الضرة من ضرتها لأنها دميمة والأخرى جميلة ، أبداً ، فالجمال نسبى والذهاب إلى الفضاء قد يكون فى حساب النسبية ، وليس الفضاء هو ذاك الذى تحلق فيه مركبة حط على ظهرها كوره وقتبه رجل أو رجال وقالوا لها سيرى بنا فى فجاج الفضاء ، فعند كل إنسان فضاء أوسع داخل ذاته ، ممكن أن يحلق فيه ويسير سيراً لا يفت حيل جناحه أو قدميه ولا تتقاصر

خطاه كتقاصر مركبة الفضاء وعجزها أن تواصل السير من القريب إلى البعيد !

لو أسلمنا عقولنا ومعارفنا ومدركاتنا وتعاليم قرآننا إلى من سبقونا إلى فلسفة الفضاء ، وقبلنا بأن يسلبونا إيماننا بمبدع هذا الكون وخالقه ماذا عنا وماذا فى أيدينا وماذا ستكون مراكبنا ؟ لا شىء غير الفراغ ، فمراكبهم التى صنعوها كانوا لها أجراء لا خالقين ولا مبدعين ، ولكنهم مؤلفون قطعا لجسد تناثر فى تراب الأرض فجمعوه قطعة قطعة وذرة ذرة حتى صار له جسد مادى وله حيز لا أتصور أنه أعظم من حيز الجرادة التى تسيرها الروح والنفس . وليت قومى وليت أهلى قادوا هذه الجمال من رقابها ، وكانوا رعاة لجمال هذا العصر مثلما كانوا رعاة للجمال فى الصحراء ! ليتهم دخلوا بأحصنتهم فى سباق الفضاء ! فما أكرم ما لديهم من عطاء ومن توجيه كريم إلى مشاهد هذا الكون الذى تجرى عليه فى سباق رهيب أحصنة القوم الذين ربما سرقوا منها هذه الأحصنة وزوروها من أحصنة عربية إلى أحصنة أعجمية ... لو تساءلنا من ذا الذى أنزل علماءنا عن ظهور أحصنتهم وعراها من فرساننا فى التاريخ لجاء الجواب رهيباً حاملاً معه جنائز علماء عظام أرادوا أن يبنوا حضارة علمية إنسانية فقيل لهم : لا .... !

ليس ما يجرى اليوم وما تصنعه فلسفة الإنسان جناحاً من تراب

الأرض وصخورها بذات بعد إنسانى أوجد وحدة لا ثنائية فيها ولا تبدد ولا توزع فى أحشاء الإنسان وفكره وعقله ، ولكنه قطع كل بعد على هذه الأرض ولم يترك مسافة بين جار وجاره ، تلاشت المسافات ولكن على حساب ماذا ... ؟ على حساب نقل داء القلق والسأم والمروق من الإيمان بالأسمى عند أكثرية البشر.

وصحراء امرئ القيس وحاتم الطائى وفارس بنى عبس والمجنون وليلاه . هى اليوم تستقبل مياه السحب فى عطش قيس لليلاه . وفى عطش من جعل من ظهر جملها مخدعاً له وتستقبل أيضا نصيبها من قلق العصر وارتعاش بدنه ، ولكنها وهى تصارع الأمواج العاتية تبنى الأمل العظيم من صخور جبالها الشم التى حنت هاماتها مقبلة ومعتزة بغار حراء ... !



رعـــــاة الكـــــــرم

أبـوىّ :

قال أحد البؤساء قبل أكثر من ألف عام وهو يلوذ بآلامه وبؤسه من كهف إلى كهف ومن جبل إلى جبل ، قولاً صور به حاله ، ولربما خطر بباله أن يتجاوز بها حالته الخاصة إلى حالة عامة ، هو اليوم فى ذمة الغيب لا ندرى مدفنه فى قلب الصحراء ، هو غريب عنا إلاّ من هذه الأحاسيس التى أوحت بها إليه بصيرته : أن كل ما فيك فانٍ وضائع فى التراب فأرسل مع الأيام والسنين صورتك وصورة القدم التى تمشى عليها والقلب الذى يرتجف خائفًا ، لا تجاور الحجر وتصمت مثل صمته ، قد ينطق الحجر وقد يكون له جناح وقد يكون رعبًا ولا رعب الذئاب ، قالت له بصيرته كما أتصور وهو فى ثيابه المهلهلة مع ماعزه وبعيره : قد تنقلك الأيام ضيفًا على متألم أو متألمين فيضيفونك ويكرمون وفادتك ويقولون لك أنشدنا فتقول لهم :

وَطاوى ثَلاثٍ عاصبِ البَطْنِ مرملٍ

ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

أخى جفوة فيه من الإنس وحشة

يرى البؤس فيها من شراسته نعما

وأفرد فى شعب عجوزاً إزاءها

ثلاثة أشباح تخالهم بَهْما

حفاة عراةٌ ما اغتذوا خبز ملةٍ

ولا عرفوا للبُر مذ خُلقوا طَعْما

رأى شبحًا وسط الظلام فراعَهُ

فلما بدا ضيفًا تشمَّر واهتما

وقال: هيا رباهُ ضيفٌ ولا قِرى

بحقك لا تحرمهُ تاالليلة اللحما

فقال ابنه لما رآه بِحَيْرةٍ

أيا أبتِ اذبحنى ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعُدم علّ الذى طرا

يظنٌّ لنا مالاً فيوسَعنا ذمّا

فروّى قليلاً، ثم أحجم برهة

وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد هما

فَبَيْنا هُمُ إذْ عَنَّتْ على البعدِ عانةٌ

قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

عطاشاً تريد الماءَ فانساب نحوها
على أنّه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروت عطاشُها
فأطلق فيها من كِنانته سَهما
وبات أبوهم من بشاشته أبًا
لضيفهم والأم من بشرها أما

ولعل الحياة التى حييها هذا الشاعر لم تكن حياته وحده ، ولكنه عربي عبرت عنه مكارم أخلاقه ولم تعبّر عنه عبراته ودموعه ، تعالت به خصائصه وتجربته مع الحياة ومع الإنسان ومع القفر الموحش ، تجربته مع الكرم والبخل . عَبّرت به قافيته السخية إلى معركة من الآلام والحسرات ، فالضيف الذى نزل عليه قد لا يعذره قد يذمه ويتهمه بالبخل ، والعربي من خصائصه الكرم والعطاء ، فمشى إليه طفله الصغير أن اذبحنى قِرى لضيفك ، فإذا الكبش يقود قافلة من الظباء .. أو من حمر الوحش ، أتت ظامئة متعطشة إلى الورد فأبي عليه كرمه أن يصدها عنه فهى ضيفته مثلما هو ضيفه تركها حتى ارتوت ثم سدد إلى واحد منها سهما أوجبته الضرورة والخوف من ضيف لا يعذر ولا يدرك حالة المضيف !

وعلى متن الزمن حملته خصائص الإنسان ومميزاته فى قلب

الصحراء مياهًا عذبة كمياه السحب ، فما فى صحراء العرب غير مكارم الأخلاق ولا فيها ملاذ لبخيل ، فهذا البدوى أو أخوه حاتم الطائى أو عروة بن الورد ما هم إلا رموز لسخاء قوم بيوتهم ظهور مطاياهم فى قلب الجزيرة العربية ، فحافر الحصان أو خف الجمل جناحان ماهاضتهما بنادق الرماة لأن فارس بنى عبس والطائى وغيرهم رموز للكرم والشجاعة وليست هذه الرموز التاريخية أحجارًا أقامها الإنسان حجرًا فوق حجر فتهدمت أو ظلت جامدة لا تعبر عن خصائص إنسانية أبدًا ، فيوم نصعد جبلى أجا وسلمى جبلى الطائى ونسائلهما أين مدفن من قال :

أمـــاوى إنَّ المالَ غـــادٍ ورائـحٌ
ولا يـبقى غـيـرُ الأحـاديث والـذكْـرِ

ردد الجواب جناح الجبل : ليس له مدفن أهديك إليه فقد حملته الرياح معها عبر الزمن فى رائحة شذية ألا تشم هذه الرائحة فى ثياب قومك ..... ؟

خفضت طرفى حياء من السؤال ومن الجواب عنه ، فقومى هناك فى قلب الجزيرة العربية مازالت روائح الخزامى وهى روائح الكرم والربيع عالقة بملابسهم ومن فوق قمة الجبلين ملت إلى منازل فارس بنى عبس فساءلت المنازل أين مربط حصانه وأين الجبل الذى كر وفر

فيه هذا الحصان ؟ فجاءنى الجواب مكرا مفرا حتى خشيت أن يحطم ساقى ، وما عرفت أن للجبل انفعالاً وغضبًا إلا حين اعترضنى الجواب شاهراً سيفه أن لا مربط لحصانى هنا ، ولم يعد هذا الحصان مكرًّا مفرًّا فى جبله ، ولكنه صار حصانا مكرا مفرا على ظهره فارسُه فى كل عالم البشر لم يكن هذا الشعب أو هذا الوادى أو تلك التلاع منازله أبدًا ولكن الدنيا كلها صارت منازل له ، لقد حمله الزمن من هذا الشعب إلى كل أمة من الأمم وإلى كل جيل من الأجيال وإلى كل لغة من اللغات لا تبحث عنه هنا فهو الرمز الذى لم تُنزله حتى الآن مراكب العصر وفرسانها عن ظهر حصانه وتأخذ مكانه !

وفارس بنى عبس إذا أخذناه رمزا للشجاعة وحاولنا أن نمجد فارسًا يخترق الصفوف بقلب لا يضطرب من الخوف وبزند لا تلين مفاصله ، أنظل كالطيور الجائعة نسير خلفه حتى يرمى لنا الضحية فنحط عليها ؟ وهى جثة هامدة نمزقها بمخالبنا التى لا تدرى ما الحلال وما الحرام فى هذه الجثة ؟ وهنا يتراءى لى أن الشجاعة ليست سيفا وليست زندًا وليست حصانًا مكرا مفرا ، فشجاعة فارس بنى عبس إذا أخذناها دفاعًا عن العشيرة وفكًّا للقيد الذى على حريته هتفنا لها من صميم قلوبنا وظللنا نفخر ونعتز به وبالتراب الذى هو

ترابنا اليوم ، وإذا مثل هذه الشجاعة تجاوزت هذه الأهداف النبيلة وصارت إلى قذيفة من الشر والبغضاء حطتها يد لئيمة من كبد السماء على فقراء وبسطاء كادحين من أجل لقمة العيش ، أنقول عمن ألقاه ومن أعطاه حق هذا التجاوز الرهيب على حرية الإنسان فى بيته وبين أطفاله إنه فارس وشجاع .. ؟ أبدا ... بل حق على كل إنسان فى قلبه حياة وبصيص من الضوء وفى عقله مكان لم يلحق به الشر حتى الآن أن يفضح هذا الوحش الذى خرج من غابته فى ملابس إنسان متمدن ومتحضر وهو لم يكن كذلك ، ولكنه الجنون والجحيم والروائح الكريهة وما أكثرها اليوم فى عالم البشر...

وعروة بن الورد ، ذاك العربى الذى له مذهب الكرم والسخاء أوصله إلى حالة من التضحية لم يصل إليها أحد سواه حتى الآن ، لا يكتفى بأن ينحر ناقته لضيفه أو لجائع أو جائعة ، ولا يذبح شاته وكفى ولكنه يقسم جسمه فى جسوم كثيرة كما قال وكما فعل ، فهو لا يريد أن يكون بدينًا بالشحم واللحم والآخرون يابسة جلودهم على عظامهم من الجوع ، وما هذه الحالة منه إلا تعبير أخذ فى بعده مع العطاء مكاناً لم يرق إليه أحد حتى الآن من أرباب النظريات والمذاهب التى أكثر ما فيها تجاوز تجاوزًا بشعًا على حرية الإنسان وحقه فى التعبير عن نظرته للحياة.

هذا العربى كم ركبتُ ناقتى وطوَّفْت فى صحرائه أسائل كل جبل وكل شعب وكل روض وكل واد ملأت فه أشجار الطلح والسدر ، أين منازله ... ؟ من يدلنى عليها ، فلى نسب مع هذا العربى الذى لم يبن بيتًا من الطين ولم يضع عليه الأبواب فيغلقها ، هذا العربى الجوَّاب فوق مطاياه وحده أو مع رفقائه تنازل عن لقب أمير العشيرة ، وقبل أن يكون فى التاريخ أمير الصعاليك ، كم تساءلت عنه فى فجاج الصحراء فلم أجد شعبا واحدًا قال لى : هذا مضرب خيامه ، فتساءلت ما السبب .. ؟ فجاءنى الجواب أن عروة بن الورد لم يكن وتداً يعض الأرض ويندفن فيها مثلما تدفن النعامة رأسها فى الرمال هروبًا من الصياد ، ولكنه له جناح العقاب وله سخاء السحب وله جسم يقسمه فى جسوم كثيرة يجوب الصحراء من أجلها لا قطيع له يسقيه من آبار نفسه مياها تجعله فى حالة من الحنين إلى الشح بقطيعه الذى كثيرا ما كان سببًا للقطيعة بين البخلاء من رعاة الإبل لا رعاة الكرم .

ولأنى حائر فى منازله بالذات إن كان له منازل ، لا أدرى أعند جامعات العرب اليوم ومدارسهم أخبار هذا وذاك من الأمثلة والرموز التى تعطى شبابنا صورة علقها الزمن وعلقتها مكارم أخلاقهم على حائطه ؟ لا أدرى أنحن من قراء هذه الصورة والمبحرين فى أعماقها ؟

فهى أصالتنا وهى وادينا الذى إذا رحلنا عنه فكل واد غيره نكون فيه غرباء ! ! .

أهذا الذى يجرى فى دمى ويعترضنى كلما أردت أن أخرج من عالم الصحراء إلى عالم العصر لأكون حضاريًا ومتمدنًا صدى تسلل إلى نفسى من أعماق التاريخ فى الجزيرة العربية وقال : أنا هنا تراثك ومدنيتك يوم لم يكن فى عالم البشر غيرى ، فلا تدر ظهرك لى فتخسر ذاتك ! افتح كتابى وأزل الأنقاض الزمنية عن كاهلى فقد طال رقادى تحت الركام من آلاف السنين. وهنا تلحق بالقوم شريكًا لا تابعًا أو إمَّعة ! ! إذا لم يكن هذا فشجرة الطلح فى قلب الصحراء والخيمة أكرم لك من ناطحات السحاب ... ! !



ملكة سبأ

أبــويّ :

بالأمس وقفت بى قدماى على التراب الذى مشت عليه بلقيس اليمن وعلى واديها وأحجاره المتناثرة على جنباته تساءلت : أفى هذه الصخور والجبال والتلال أحداث دفينة ؟ هل فيها ذكريات غابت فى أعماق الزمن آلاف السنين فجاء هذا العصر ليثيرها من مباركها ويطلقها من عقالها لتنطق لنا بالعبر وتدلى بقراءات عن شبابها وشيخوختها ؟ لا أسرح بالخيال وراء قافلتها التى مشت استجابة للأمر الذى صدر إليها ولا أعترض راحلتها التى ركبتها اعتراض قاطع طريق لايدرى من راكبة الهودج ولايعرف أن لها نظرة ثاقبة دونها عين زرقاء اليمامة فهى يوم طلبت المشورة ويوم أدلت برأيها كان القرار الحاسم وهناك ، يوم كشفت عن ساقها وقيل لها أهكذا عرشك ؟ خرجت بذكاء من حرج السؤال وقالت : (كأنه هو) . هذه الملكة العظيمة ماغرقت نفسى مع شىء مثلما غرقت معها وأنا أمشى فى منازلها ولا أدرى ماذا يأتى به الغد من مفاجآت حضارية ينحسر عنها لثام الجبل ولحاف الأرض .

وحتى لايقال عنى متعصب وضع من العصبية على حائطه الخاص مرآة لهذه الملكة العظيمة ودولتها وحضارتها ، لا أتجاوز حائطها إلى حائط كسرى أو قيصر ، أو حتى من بنى مركبة الفضاء ، سأبقى أحفر الدرب بقدم وعيى وأطلق لجناح الخيال الحرية فى أن أتصور وأمشى وأسرح بالخيال وراء هذه الحضارة ، وهذه الملكة العظيمة ، وإن غضبت حضارة العصر وأغرقها السيل العرم ! !

لا أسوق الخيال وراء أو هام أو فراغ ، ولكن البعد الزمنى الذى بيننا وبينه غياهب من الدهور ربما يتعثر الخيال قبل اللحاق به ، فالحبيسات من العبر ومن الأحداث فى قيود الزمن الغليظة جاء عصرُ ابن سبأ وابن بلقيس وابن حمير وابن الرسالة الإسلامية ليلقى بثقل وعيه وعقله وذهنه على تراث لعل الله أذن للإنسان العربى باستخراجه وحمله على ظهر الحصان العربى والجمل العربى ، لاعلى مركبة الفضاء ليراه عالم مفلس من هندسة الوعى بظروف الحياة وقسوتها على الإنسان الذى وقف عملاقا وقال لها آنذاك : أقبلُ بالتحدى ، فزرع الجنان ، وبنى السدود ، وبنى من عقله مراكب من العبر حتى الآن لم تنزل من على ظهر الزمن ، ولم ينحسر عنها جناحه ، فقد خلدها القرآن الكريم بما تستحقه ، فيوم أصابنى الدوار وأنا واقف على رأس الجبل أسرح بنظرى وخيالى وراء الملكة وهى بين قومها حكيمة فى

رأيها ، طالبة للمشورة ، خاضعة لها ومدلية فى جدل بينها وبين قومها بآرائها ونظرتها البعيدة لا أدرى لو أنها قالت لقدمها الجميلة : قفى ولاتتحركى ، ماذا عنها وعن حضارتها وهى تقرأ الإنذار الذى بين يديها قائلا لها فى أمر كريم: (ألاَّ تعلوا علىّ وائتونى مسلمين)؟؟ هذه الملكة التى أشعر بخطاها الآن بين الجنان والحياة الرغيدة ماحلمت فى حياتى حلما أجمل من النعاس الذى غشانى وأنا ساهم وراء من كشفت عن ساقها لالتعرض زينتها فهى سائرتها وفق أصالتها وقيمها ولكن ماتراءى لها فى ذلك الموقف الرهيب لم تجد حرجا فى أن تكشف عن ساقها فهى ساق غير معيبة ، ويقينى أنها مامشت فى درب يظلله الظلام ... ، لا أدرى وأنا أخط هذه الخاطرة بجانب ماقيل إنه مكان عرشها : أأنا على قدم الذهن أمشى أم على قدم العاطفة ؟ ومادمت فى حيرة من ذلك لماذا لا أقبل أن تكون عاطفة وحلما كبيرا بما هو آت من هذا التراب من عبر ولاحرج علىّ فترابها هو ترابنا نحن العرب وحياتها وموتها وما جاء عنها هو لنا بشائر العلم فى أفق الرؤوس المضيئة والمستنيرة تشير إلى أن هذه الحضارة قد تستيقظ من سباتها لتضيف إلى الحضارة العربية الإسلامية أمجاداً على أمجاد .

إن هذه الجنان التى هذا ترابها وهذه أوديتها وهذه جبالها شب فيها الربيع وازدهر وجاءت الحياة فيها نضرة وخصبة لا أتصور أن على

ترابها قطرة دم ، فلا تجتمع الحياة فى مكان واحد مع الدم والموت ، لم أقرأ عن هذه الملكة وحضارتها أنها قامت على الدماء ولكنه الوعى والحكمة وتصبب العرق ، أخذت هذا تصورا وهو قد يكون الحقيقة وليت من يملك الميراث يصونه ويجدد شباب الحياة .

هذه الملكة لو كانت هوجاء انفعالية لأخذها الغرور وقصر النظر إلى ما أخذ إليه الكثير من البشر ، فتعالت ورفضت الأمر الذى صدر إليها ، لو حصل هذا فلا يعلم غير الله ماذا يحدث ولظلت فى التاريخ حدثاً دموياً لايجد من يدفن جنائزه فى مدافن التاريخ لما فيها من رائحة الدم ، ولكنها قدرت ثقل المسؤولية التى على عاتقها وقدرت أبعاد الخطر فدرأت عن قومها وعن مملكتها الخراب والدمار هذا إذا أخذنا موقفها الذى قررته الحكمة سياسة ودهاء كما هو فى فقه العصر وإذا أخذناه أيضا أنه استجابة للإسلام الذى دعيت إليه فكلتا الحالتين هى فيهما كبيرة .

فديمقراطية العصر الدموية التى ترى أن ضميرها قلق لا يستقر مع المبدأ العام للديمقراطية أو بالأصح للمشاركة الفعلية فى الشورى ، لو أخذنا هذه الملكة من جبال الجزيرة العربية ووهادها وترابها وفكرها وإنسانيتها وتنقلت فى جامعات الغرب والشرق تحاضر عن رؤيتها ورؤية قومها عن معنى الديمقراطية والحرية التى يحكمها العقل والوعى

ولاتغرق فى فوضى الغرائز والشهوات لكنا قد أعطينا حضارة العصر وغزاة الفضاء من أعماق الزمن البعيد صورة مشرقة ستكون كل فلسفات القوم ونظرياتهم جالسة على مقاعد الدرس تصغى إلى فلسفة العقل والحكمة والوعى والبناء الحضارى فى عالم ما هندس فلسفته عقل مضطرب أو شاك أو متجاوز على حريات الناس .

لاتقوم الرموز العظيمة فى التاريخ على فلسفة القهر والدم ، ولكنها تخلد عند إنسان لايرى مسؤوليته من التاريخ ومن الواجب الإنسانى والحضارى فى يومه وغده . وإذا أخذه قدره من فوق كرسيه الذى أجلسه عليه لعلة من العلل أخذه قصير النظر مقيدا بقيود اللحظات الزمنية التى عاشها دون أن يرى أو يدرك أن هذه اللحظات لايخلد معها إنسان لايتخطاها إلى أعماق بعيدة من الزمن وبأفعال حميدة وكريمة . فهذه الملكة لماذا لم تدفنها الرياح فى مملكتها وينسحب عليها النسيان فلا توجد فى ذاكرة ؟ السبب بسيط لأنها بنتْ وأوجدت حضارة وربما عدالة ، لعلّى بذلك لم أتجاوز الاعتدال فى تصورى عن هذا التراب الذى أمشى عليه وإحساسى يلقى على قلمى الآن أن كل صخرة ، كل حبة تراب ، وكل أثر بارز لم يعفّ عليه الزمن ، يملى علىّ هذه الأحاسيس .

وحتى لاتكون هذه الأحاسيس أحزانا ودموعا ومراثى لا أضطجع

على هذه الرسالة وأقول هذه أحلام يقظة مرت بخاطرى على عجل مرور سحابة استدبرتها الرياح فمزقتها فإذا لاغيوم ولا أمل فى غيث ، فأمتى الكبرى ويمننا السعيد جزء منها ، وهى ترى هذا العصر وترى أيضا دورها فى التاريخ البعيد والقريب لن تكون إن شاء الله هذه السحابة التى تمزقها الرياح فإذا هى نتف وقطع بددتها الرياح بعد أن كانت سحابةَ ربيعٍ الهدايةُ الإنسانية قائدها ومرشدها ومعلمها .

لا ألوذ بكهوف النفس وأطوى أوراقى وأنصرف عن هذا التراب العظيم دون أن أسجل الخاطرة التى هبطت على ذهنى من فوق قمم الجبال الشاهقة وقالت لى : سجل فى زيارتك لى ملامح قد علاها المشيب وحنت ظهرها السنون السحيقة عندى ، فملامح الشفق الذى أدخلنى فى الظلمة قبل آلاف السنين ، ملامح الصباح اليوم تتراءى فى الأفق الجميل آتية لتطرده فى إحساس بدوى مثلك من قلب الجزيرة العربية ونبض فى مستقبلى كحضارة إنسانية وعربية ، ولن أكون حضارة ولن يتجدد شبابى إلا على قيم الرسالة الإسلامية والأصالة العربية .

مـــاأنـا بقصّـــاص أثـــر

أبــوىّ :

أفى هذه الحياة جفن لم يشخ ..؟ وهل فيها عين لن تنطفئ ..؟ تتجاوز بنا فى بعض الحالات مشاعرنا وأحاسيسنا ذكرياتنا عن الفناء ، ونبقى أطفالاً على صدر الحياة نرضع الثدى ونتلهى به وبها ، ماكبرتُ ولاتجاوزتُ سن الطفولة إلا حين أيقظنى بكاء أطفال جارى وأمهم الثكلى على أب أخذه الفناء من بينهم ، وهم فراخ صغار وما أنا وماكتبته فى أكثر هذه الرسائل إلا مقبرة لمدافن كثيرة حملنا جنائزها على أكتافنا فظلت هذه الجنائز تنشد لنا نشيد الفناء ، وما بين هذا والحياة من بيعة ولا زمان ولامكان نعرف نهايته فينفرط عقدها الذى يستهدف الإنسان والحيوان والنبات وربما هذا الكون كله ، لايستطع إنسان ولن يستطيع أن ينثر ودعه الذهنى والعقلى على كف القدر فتنطق له بالجواب الذى ينتهى عنده كل غموض وكل سر من أسرار هذا الكون !

وأجمل مافى هذه الحياة وأكرم مافيها من صدفات ثمينات هو

هذا الغموض وهذه الأسرار التى نلهث وراءها لهاث هذه الكواكب فى مسارها تجاه مغيبها أو شروقها فما تعاظمت فى جمجمة المفكر أو الفيلسوف أو حتى الرجل العادى غيوم ممطرة غيثا ينبت ربيعاً لا يلاحقه خريف.

وما بقاء الإنسان فى غيبوبة من النعاس الثقيل إلا هروب بأوجاعه وآلامه إلى سراديب النفس المظلمة ظنا منه أنها تلقى عليه غطاء لايلحق به من يوقظه من منامه الطويل، عجز مابعده عجز وجبن مابعده جبن مثل هذا الهروب عن واقع لايستطيع أن يهرب منه إنسان وإن استجار بأقصى كوكب يسبح فى الفضاء..!!

ولى مع هذه الجعجعة مسار أمشى عليه منتصب القامة لامحدودب الظهر خفيض الرأس خوفاً من بندقية القدر فالذين أخافتهم الأشباح أين هم الآن ...؟ لا أدرى، ولا أرغب أن أعرفهم وأشغل نفسى بهم، فالرجال الشجعان هم الذين يجب أن نتساءل عن زمانهم ومكانهم عبر التاريخ، ومن وجدناه منهم نتتلمذ عليه وندرب خطانا خلف خطاه ولانتشمم أقدام الجبناء الذين تفكر لهم أقدامهم الماشية على التراب لا على جماجمهم!! فأسراب الطير السابحات فى الفضاء هل يتساوى فيها جناح الباز مع جناح العصفور..؟ هل يتساوى جناح العقاب مع جناح القطا...؟ هل

يتساوى جناح الصقر مع جناح الحبارى ..؟ هل تتساوى شجاعة هذا مع ذاك ؟ فمثلما فى الطيور من خفيض الجناح ردىء الحَيْل أمام قوىّ الجناح كذلك فى الإنسان نفسه ، فما ترهل عقل إنسان وفكره إلا وترهلت معه شجاعته وخلّفه هذا الترهل عن سباق العقول والأفكار فى ميدان الحياة ، تعبير يستقبله القلم أعلل به نفساً تضيق بأنفاس الماشية عندها ، وما كل تعبير يعبر مجراه دون اعتراض الصخور الجاثية فى طريقه ، ولا كل نعل تمشى عليها قدم الذات فى طريقها إلى قدرها بقادرة أن تحميها من أوجاع الطريق إذا لم تكن نعلاً من الاحتمال والصبر وخفة البدن من ثقل الأطيان ، لا أجرح بقلمى جرماً بديناً بنته شهية لاتشبع ولاترتوى فتجريح الأبدان والاعتداء عليها وعضها بأسنان القلم ، كَلَب أصاب بدائه كثيرا من الأقلام. وقلمى الذى بيدى لم يكن كلْباً مسعوراً أصابه داء الكلب فراح ينهش المارة ويحقن حلقه من دمهم نزيفاً ، ولكنه إذا أوجع أو أثار راقداً من منامه وسأله من أنت ..؟ ما اسمك من بين الأسماء التى ورثك إياها الأب الأول لايكون لصا يتسلل من نافذة بيته إلى بيت جاره ، أبدا هو باق فى تجوال لايستريح داخل البيت الذاتى ، وكلما طرق سكنا لرغبة من الرغبات أو لصورة من الصور وسألها ألى عندك استراحة أعود بعدها إلى سجلى لأخط فيه دورك مع الحياة ومع

رسالة الإنسان ؟ تلاعبت بالكلمات وتظاهرت بلباسها لبرقع الحياء ، وعندها قلت لها : إذا أزعجك منى سؤال أو نخس خاصرتك فاحتملى الأوجاع من أجل استخلاص الحقيقة وحمل أخبارك إليها على عاتق نظيف وقلم قد يكون فى عنقك أو فى أى جزء من أجزاء البيت الذاتى يحصى على العائلة الذاتية كل نَفَس ، أما أنا فقلم من الحشائش ومن أشجار الصحراء ، قد أعود من رحلتى هذه كما عاد مقامر إلى حليلته وأطفاله مفلساً حتى من عقله وذهنه مذهولاً لأن كل شىء ضاع من يده وراح إلى سلة المقامرين ...!!

ومجادلة الماشين إلى حانة الساقى أو بيوت المقامرين أو إلى بيوت الدعارة فى نفس الإنسان متى يكون التوقيت لها ..؟ أيكون على عتبة البيت الذاتى قبل أن تخطو واحدة منهن خطوة فى طريق الغواية ..؟ لا ... فرجل الحسبة أو رجل القانون ، ليس له سلطان على من هو داخل البيت ، فيستقبل الوسوسة من فم الغواية ، ولكن السلطان لوعى يحمل الإرادة وعقل يعقل الغواية ويقول لها : ابقى هنا لاتخرجى إلى الشارع العام فتنفضحى والفضيحة على رصيف الشارع العام قد تكون فضيحة كبرى فى مكان لايختفى فيه لص وإن لاذ بعمامة خطيب القوم !!

أأنا بهذا أجرّح عَمْرواً أو أخاه زيداً ، أبداً ، ولكنى أجرح بدن

الرذيلة ، وياليتنى قادر أن أغرس فيها قلمى إلى أن تلفظ أنفاسها ، ولكن القضاء والقدر فى تصورى يسايران الهداية لمن أرادها ويسايران الغواية لمن شاءها فلا جبرية تلبس هذا خطام الرذيلة وتلبس الآخر خطام الفضيلة ، لو تصورت هذا لفقدت إيمانى بعدل الله وما عفة الألفاظ فى مثل هذه الرسائل بآتية من مكان نظيف ، ولكن الإنسان مفتون بأن يغسل ثيابه وينظفها إذا خرج من بيته إلى الشارع العام . فكم من إنسان لبس ثوب عيده على بدن لم يغتسل ولم ينظف من الأوساخ ، ولكن ثوب عيده ستر أوساخ بدنه فقيل له عيد سعيد ! !

إذا حلبت ضرع ناقتى وملأت القدح من درضرعهالضيف أناخ مطيته واستضافنى أيقبل أن يكون قراه مافى القدح من شراب ...؟ لا أدرى ، فما كل من نزل ضيفاً على بيت ليس بداخله غير الإفلاس بعاذر ربة البيت أو ربه ، والناقة هى كل مايملكه رب بيت الشَعر حَرَمتْ حاشيها الذى يشمشم ضرعها أن تسقيه من درها وأعطته لضيف أهلها ، أيجوز أن ننحرها لضيف لايعذر ولا يدرك معنى الإيثار والعطاء ..؟ فناقة البدوى يوم تحرم حاشيها وتؤثر عليه ضيف العائلة ألا نرى فى هذا أكرم الرموز فى عصر تجاوز الإيثار وتخطى فى غلظة القدم وجفاف الطبع كل حافز يثير فى النفس الكريمة أجمل

الصور لأجمل الأفعال .. ! !

والذين سنوا قوانين غليظة على وجدان الإنسان وعقله وروحه ليت فطرتهم باقية لهم لم تفسد ولم تغلط فى حق هذه الفطرة التى نجدها عند ناقة البدوى وعند صاحبها فى الصحراء ، فهذه الناقة التى تحمل المتاع وتحمل بيت الشعر وأهله ولاتمل الرديف هل ننحرها لأن حضارة العصر ونوق العصر تعالت عليها وهى أكوام من الحديد ..؟ أبداً ، لن ننحرها ولن تختفى من أذهاننا صورتها الجميلة ورقبتها المديدة ، فهى التى أكرمنا بها بارئ هذا الكون ، وهى التى ظلت حميمة فى ودها لنا عبر الزمن ، من فوق ظهرها بنينا حضارات إنسانية ، هذه الناقة هى التى حملت كل قائد عظيم من يثرب أو دمشق أو بغداد أو القاهرة ! !

قد يتساءل قارئ لهذه الرسالة كيف خرج من بيته الذاتى كاتبها وراح إلى الصحراء مع نياقه ، أأصابه الملل من فلسفة الذات وأحراشها فراح يعيّد فى ثياب الصحراء ولباسها الذى بالمطر يغتسل ، ولمن يتساءل آخذه معى إذا أراد ذلك ليرانى فى سيرى مع القلم لا أمشى الهوينى .. فلا قدم لى ثابتة فى خطاها بل تلوح لى الصورة من بعيد فأقفز إليها لأقص جناحها وآخذها إلى حائط مثل هذه الرسالة . فما أنا بقصاص أثر يأخذه خطوة خطوة ولايميل إلاّ

حيث تميل به خطى صاحب الأثر.. ، فما علمتنى الصحراء وما علمني مذهبي فى الحرية أن أتشمم خطى الآخرين .. وما هذا بعزوف عن فيض جمجمة أسقاها عقل شراباً عذباً ، ولكن عدل الله ورحمته بالإنسان أنه لم يعط هذا ويحرم ذاك ، فكل بنى البشر لديهم هذا العقل وهذا الإدراك والوعى ، فمن عطله فعليه مسؤوليته من ذلك ، ومن أجاز لعقله أن يقاضي ذاته مقاضاة قائمة على ميزان العدل الذى جاء به الوحى وهدتنا إليه الرسالات يكون بذلك قد خفض جناح غروره وكبريائه وقلَّم أظفار الشر فى نفسه وأعطى الأمان لذاته ولجاره ولمجتمعه بل وللإنسانية ....!



مـــــا الـــذى يضـــايقـــه ؟

أبــوىّ :

قال رهين المحبسين ، وهو مِنَ الذين قسوا على أنفسهم ، فأركبوا الإنسان مركباً وعراً ، وهاضوا جناح التفاؤل .

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذَميمةٌ
ويانَفْسُ جِدِّى إنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ

تضرب استقرارى هذه الفلسفة ضربات عنيفة فأفزع إلى فراشى لعلى أخرج من اليقظة إلى النعاس الثقيل فإذا هى تجلدنى فى فراشى فأبقى مع هذه الحالة جريح الفؤاد أضع يدى على قلبى الذى يضطرب وعيناى شاخصتان فى نجوم السماء أسائلها هل أرَّقها ما أرَّقنى ؟ وهل مثل هذه الفلسفة قد تفاءل بها شاعر أو فيلسوف لكُنّ ؟ أأنتن شاخصاتٌ أبصاركن فينا نحن الذين نساهر النجوم ونتساءل عنه وعن منازله وعن همومه وأحزانه ؟ ليت واحدة منكن يانجوم السماء تغمض طرفها وتغط فى نوم عميق لتحلم لى أحلاما جميلة وتتفاءل لى وللإنسان بفلسفة ملىء قدحها بالرحمة .

أمنيات تائهات فى فجاج مخيفة كلما عبرنا من فجاج إلى آخر تساءلنا ألا من أمان ..؟ ألا من يجير الخائف ويستضيف الجائع ؟ فإنا أبناء سبيل ...

ما أكثر مافى فلسفة الشيخ من رحلات بعيدة فى فجاج هذا الكون ! ! وما أقل مارأيناه مستريحاً فى مكان ظليل ! ! والسؤال الذى تثيره دائماً فلسفته ونظرته إلى الحياة وإلى الكون وإلى الإنسان منذا الذى أخذه إلى هذا البعد ؟ من الذى قاده وعصاه بيده وعيناه منطفئتان ..؟ أهى بصيرته ؟ أهو عقله ..؟ أهو ذهنه ..؟ ألهذا الذهن جناح عنده يفتح له من سجنه نافذة يطل بها على عوالم خاض فى مياهها حتى أغرق جمَال الحياة فى هذه المياه؟ أتساءل مع من تساءل ، وما أكثر الذين أعجبتهم فلسفته وما أكثر الذين قالوا عنه إنه ماء كدر كَدَّرَ الحياة! ! والحكم ليس بيدى على مثل هذا الإنسان الذى ظل فى سجنه الاختيارى أربعين عاماً ، وقيل عنه أشياء كثيرة اختلف عليها الناس اختلافاً كبيراً ، وما أنا فى هذه الرسالة بمنحاز إلى ماوقع عليه من خلاف ، فما أنا بصدد تجريح بدنه أو تقبيل أنفه ، ولكنى مأخوذ إلى هذا الرمز الرهيب من الرموز البشرية التى يجب أن يقف عندها الإنسان وقفة متأمل أو متسائل عن تربته وعن أبعادها ومافيها من دفين ، فالذين نقبوا فى طبقات الأرض أو رحلوا إلى

الفضاء لا أتصور أنهم هم العلماء وأنهم هم الذين اكتشفوا معجزة واستباحوا سرا دفيناً ، أبداً ، فتربة هذا الإنسان وفضاؤه هى وهو اللذان يجب أن يحشد لها كل علماء النفس وعلماء الاجتماع فيضربون خيامهم فى منازل هذا وأمثاله ، ثم يحفرون لنا فى طبقات هذا الجرم الضخم أنفاقاً يستطيع مفسر الأحلام ومحلل العقد أن يعطينا ولو ضوءاً خافتاً عن السر العظيم الذى لم يكن دفيناً فى بدن كوكب من الكواكب فمعادن التراب إن كانت ذهباً أو نفطاً أو نحاساً ليست المعادن التى تحل مشكلة الإنسان ، ولكن المعدن الذى لو لحق به علماء العصر رجال دين أو رجال دنيا هو الإنسان ذاته ، ويوم أزوره فى سجنه وأراه قابعاً فى زاوية من زوايا هذا السجن الضيق وتأخذنى الشفقة عليه سرعان ما أقف حائرا حينما أخرج من باب سجنه وأجد من يحاكمه ويقاضيه دون شفقة أو رحمة ! !

ليس فى هذا الكون مايضايق الإنسان ، بل كل مافيه متجمل له لابس زينته يعرضها عليه صباح مساء إن كان على سطح هذه الأرض أو فى باطنها ، إن كان فى الفضاء أو فى الآفاق البعيدة منازل الجوار الكنس إذاً ما الذى يضايقه ويجعله دائماً فى حالة من الاكتئاب والآهات أو من الخدر العقلى والذهنى الذى لايحس بهذا الجمال ولايدريه ويتذوقه . ؟ لا أحد يستطيع أن يدلى بالجواب غير

الإنسان ذاته ، فهو الذى يلون الحياة ومافيها من جمال وفق استعداده العقلى والذهنى ، وفق إيمانه بأن هذه الحياة وهذه العوالم الكبرى ليست لقيطاً لايعرف له نسب وليس هو ابن العبث .

وما رهين المحبسين فى تشاؤمه إلا ظاهرة فريدة فى عالم الإنسان تحامل على شيخوخته وقادته بصيرته فوقف على مشارف الطريق العام يقرأ الإنسان ويتأمل حركاته فلم ير مايعجبه ، بل ربما ظن أن القبر ستر له كما قدر أن سجنه لنفسه ستر له ، وهو فى مذهبه هذا لم يتجاوز على الحياة فينتحر ، بل نادى الموت أن تعال إلى زائراً وخذنى إلى مدفنى وهو بهذا يرى الموت زائراً يأخذه من مكان إلى آخر ، وليس فناء لا بعث بعده ـ كما يرى الجاحدون ـ والذين لا يرون فى الموت زائراً ولا يدركون المعنى العظيم لقوله تعالى : (حتى زرتم المقابر) أيستطيع واحد منهم أن يختفى عن هذا الزائر الآتى إليه فى يومه أو غده . ؟ هنا يكون التحدى العظيم ، وهنا يتهاوى على التراب كل كبرياء وكل غرور وكل فسوق عقلى ! !

لأن العود حميد من هذه الرحلة الطويلة ولأنها اختيارنا ، تتجاوز بنا أوجاع الحياة وآلامها كل شك وكل سقوط فى فوهة البركان العدمى ، نتجاوز ذلك لابعملنا ولكن برحمة الله بالإنسان ، فالمكابدة التى يكابدها الروح والجسد قد فلحت كبد الإنسان وضنت

عليه بالأمن داخل نفسه ، وهنا يتعالى السؤال إلى أين يتجه بنا هذا التحول الرهيب فى عصرنا الحاضر...؟ أنحن ندنو من النهاية ومن التداعى الكونى ؟ فكل شىء عندنا فى هذا العصر يتلاحق بسرعة هائلة ، فزيارة كوكبنا هذا إلى كواكب أخرى ربما تكون رمزاً لزيارة المقابر ! تصور ليس له صورة فى مرآة تعكس الحقيقة ، ولكن أنفاساً تتقطع حسرات على مايجرى اليوم فى عالم الإنسان تدلى بظنونها وبخوفها من النهاية بمثل هذا التصور الذى يرتعش من الوجل ! !

ليتنى أغط فى نوم عميق ولا أستيقظ إلا حين يستيقظ الصباح ويبسم لى وجهه الصبوح ، ليت من قال : ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح ..!. لم يسبقنى إلى ذلك قبل أكثر من ألف وخمسمئة عام ، ليتنى أعرف الآن ماذا أرقه وهو شيخ العشيرة ، ودنياه صحراء العرب وهو منها فى الصدارة ...؟ ليتنى واحد من قبيلته أرحل جمالى حين تَرحل العشيرة جمالها ، ليتنى لم أعرف القرن العشرين ، ولم أكن من مواليده ، ليت مدفنى فى وادٍ من أودية نجد أو فى شعب من شعاب الجزيرة العربية رسم لايعرفه أحد وقد تساوى مع التراب ! !

أهذا منى انتكاسة إلى اليأس والقنوط ..؟ أبداً ... فما أنا والقنوط فى منزل واحد : بعيدة منازلى عن منازله ولكن :

إذا لم يكنْ مِنَ الموتِ بدٌّ

فمن العار أن تموت جباناً .

إننى فى القرن العشرين أموت لحظة أسير على الدرب الطويل جنازة تمشى على أقدامها لم تجد من يواريها التراب لأن جنائز قومى وأمتى فى القرن العشرين مقطعة أشلاؤها مبددة كبرياؤها مذبوحة إنسانيتها وموت كهذا لاضريح له فتزوره أجيالنا الآتية محيية له ومعظمة لحماية وجوده وقيمه ومثله العليا ، ألا أركب جملى عائداً بى إلى مدافن قومى الشجعان وأهلى الكرام ومن علّموا البشرية الجاهلة آنذاك أن للحياة معنى فوق الممالك وفوق العروش وفوق المتعة واللذة ...؟ ليت الأمنيات أو الفجائع تخلص بالإنسان من الارتباك والحيرة إلى فجاج واسعة لاضنك فيها ولا أحراش ... فأفعل ...!!

ليت من يقرأ هذه الحسرات والآلام يعذرنى ويرى فيها تعميقاً وانحداراً مسرعاً إلى أعماق التاريخ الذى فيه دورنا العظيم دفين ، ولكنه لم يلفظ الروح ...!!

ما أبعد المسافة بينهم وبين نفوسهم !

أبـويّ :

ما أكثر ما ظمئت سرائرنا إلى الماء القراح . ! وما أكثر ما جاعت إلى الحقيقة .. ! على مناكبها نضع القتب ثم نركب ظهرها وندلج فى ليل مظلم ما تبدى قمره ، وما أكثر مغالطتنا للحقائق ومن حمل منا خبرا من أخبار سريرته إلى جاره أو إلى حليلته ، وقال : هى ظامئة وجائعة لم يجد أذنا مصغية ، كل مأخوذ بضجيج الحياة .. زحام بالمناكب وعلى ماذا ..؟ على ورد لايشبع ولايروى ظامئه .

تصور يدلى بألفاظ هاربة هروب نعامة أخافها صياد يطاردها فى قفر موحش ، والقفر أين مكانه ؟ والنعامة منه أين هى لائذة وهاربة برقبتها الطويلة التى بها تتقى الخطر وتراه ماشيا إليها من كل فجاج ؟ والرؤية عند شاة خلّفها الراعى وراء القطيع هل نجتها من أنياب ذئب تسلل إليها من غابته ..؟ فلا طول رقبة النعامة وقتها من الخطر ، ولا رؤية الشاة للذئب مكنتها من اللحاق بالقطيع .. هذه الحالة أو هذه الصور تدلى بها ألفاظ عائمة كسراب خدع الرعاة فتحولوا إليه بقطعانهم

فلما أوردوها إذا هو أتربة وأحجار ..!!

أأنا بهذا أدلى بمعلومات محظور على الإدلاء بها ، ومؤاخذ فى فتح ملفها لقارئ أولى به أن ينصرف عنها فيقرأ نفسه قبل أن يقرأها ...؟

هذا الذى لا أملك الجواب عنه فكثير من البشر يهرب من نفسه إلى نفس أخيه يتجسس عليها ويحاول أن يتلهى بها وبعيوبها عن عيوبه وعن نفسه ، قد يحمل الماء الكدر معه فيرشق به ما كان نظيفاً فى بدن أخيه وما أقوله هنا ليس تركيب ألفاظ جاءت بها أحلام ليل طويل ، ومع الصباح هربت من حيث أتت ، أبداً هى تجربتى الخاصة ، وهى من تربة أرضى ومن أحجار جبلها .

ويدى الآن التى تحمل القلم وتدلى بهذه الصور فى سمعه ، ما أكثر ماحملت من مياه كدرة ورشقت بها ثياباً نظيفة .... وهكذا مثلما نفعل نستقبل أيضا ردود الفعل . والذين ينكرون هذه الحقيقة أو يغالطون فيها ما أكثر شقاءهم ، وما أبعد المسافة بينهم وبين نفوسهم . أيغضبون إذا قال قائل عنهم : إنهم بذلك يبنون فى كبد الإنسان أهرامات من الأوجاع والآلام والبذاءات ؟ وإذا غضبوا فهل لغضبهم جناح يهرب بهم إلى حيث لاتلحق بهم ردود أفعالهم ؟ لا أقص جناحاً خوفاً من أن يذهب به هذا الجناح بعيداً ، فلا يلحق به عمله ، أبداً ، كل مامعنا

وفينا وماتعلمنا إياه الأيام والسنون كاسرٌ جناحه أجلٌ مهما تعالت به قوادم الجناح وقالت له : أنت فى أمان من الرماة ! ! فمنذ آلاف السنين أو ملايينها ، وجناح الإنسان يحوم فى الفضاء بخيال من الأحلام ، قليل من البشر من أيقظه الصباح والذين أيقظهم أو الذين ظلوا فى سبات عميق من الأحلام والتخيلات أين هم الآن ...؟ من قرأناهم وحملهم إلينا التاريخ أو ممن نقرأهم ولم يلحق بهم تاريخ !

فى تصورى أنه لايشق على طارح السؤال الجواب عنه ، فنحن الورثة لمن يغط فى سبات عميق ولمن أيقظهم الصباح .

ومجاهل الصحراء ومتاهاتها ليتها ظلت ـ كما كانت ـ منازلى ومنازل أحلامى ! ! ليت الجمل راحلتى ! ! وبيت الشعر بيتى ! ! والبدوية ربته .. ! ليت فطرتى ظلت فى طهارة مياه السحب يوم تمتلئ بها غدران الوادى ونوردها أكبادنا العطشى ثم ترتوى من الماء الطهور الآتى من السماء ، القريب من الله ونضطجع على فراش فرشته لنا السحب وعطرته بريح الخزامى وشجر الرمث ، صور تتلاحق على خاطرى عن أيام مشينا عنها بعيداً وخلفناها وراءنا وماقدرنا أنها لاحقة بنا على عجل ومسرعة فى سيرها إلينا خوفاً علينا من أن نضيع فى متاهات لانسب بيننا وبين نزلائها ولاتعارف ! ! كم من مرة أوقفتنى حيرتى فى هذه المنازل أسائل أهلها أبينى وبينكم نسب ..؟ فيتوه السؤال

وتتوه معه مشاعرى وأحاسيسى ....

أأنا بهذا أقوض خيامى الذاتية ؟ وأهرب منها إلى كهوف الصحراء وأشجارها متوحشاً أو مستوحشاً من عصر إذا مر بى مرور سحابة استدبرتها ريح عاتية سخر منى ومن بداوتى أو من عروبتى ؟ ولأن الحياء من الإيمان ، كم تواريت فى كهف حياءً من نجوم السماء وقمرها ، والذين لاحياء فى وجوههم يطاولون السماء اليوم ، ولا أدرى كيف هم من رهين المحبسين حين قال : .

إذا طاولت الأرض السماء سفاهةً
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ

فيا موت زر إن الحياة ذميمةٌ
ويانفس جِدِّى إن دهرَك هازِلْ

ما أكثر ماحاولت أن أهرب من الظلمة إلى النور ، ومن الكآبة إلى السرور ، ومن التشاؤم إلى التفاؤل ، ولكن إذا خطوت خطوة واحدة فى هذا الاتجاه اعترضتنى خطى أزمنة بعيدة .. فأفسدت علىّ مسعاى ولا أدرى من ألوم وعلى من أعتب ؟ أعلى الأجيال التى ورثتنا آلامها ومعاناتها وقطيعتها وتداعى أمنها وأمانها فى حلق الذئب والثعلب وأرانب الليل ...؟ تناقض تنهال ألفاظه من ذهن مضطرب ويستقبلها قلم هو الآخر مضطرب فى يدى اضطراب قلب جبان أخافه شبح لاح

من بعيد ، وقدر الإنسان مع المكابدة والكدح هل استطاعت خطاه إن كانت من قدم الذهن أو من قدم الطين أن تحمله على أرض صلبة من الوعى فمشى غير وجل أو خائف ، هذا الذى تتعثر الكلمات والأفكار والأحاسيس والمشاعر دون اللحاق بالجواب عنه ...؟

ولأن الحياة معى الآن وهى تسائلنى ماوراءك وما أمامك ؟ ومعك ؟ تسائلنى وكل شىء فارغة منه يدى ، فالذى ورائى ليته أمامى الآن فأملى عليه إرادتى وأقول لكل خطوة خطوتُها فى طريق الخطأ تراجعى وإذا أبت على كسرتُ قدمها ، أمنيات ذهب عنى زمانها ومكانها بعيداً ، وليت الندم وليت العبرات تحلم لى أن الصباح آت بالأمان إلى قلبى من أفق الماضى الذى تسائلنى عنه الحياة ! !

وحاضرى الآن ومستقبلى الذى فى ذمة الغيب أكون مذنباً وعاصياً لو تجاوزت قدْرى ومشيت إليه على خطىً من الغرور ومن التعالى ، فقد قال أبو الطيب :

(ما كل دام جبهتُه عابد) . ولكنى سأحاول أن أمشى على طريق من الأمل برحمة الله وتوفيقه وأن أصل إلى المدفن على خطى نظيفة وغير مثقلة بالخطايا والذنوب .

ما هذه الحالة الشعورية التى لم تستيقظ عندى إلا فى آخر العمر ..؟ ليتها استيقظت يوم كنت شابا وحكمتنى وحاكمتنى على كل

خطوة أخطوها !! ولكن عيب الإنسان وغرور الشباب وحمقه قليل من البشر من يتجاوزه ، وما أدليت بهذه الشهادة على أيام الشباب غضباً عليه يوم دفع بى إلى الشيخوخة على عجل ، وقال افسحى الطريق للحياة التى تجدد شبابها ولاتشيخ إلا حين يأتى يومها الموعود ، فإذا جلست فى دائرة من الذكريات البعيدة ودعوتها إلى أن تملى على قلمى كيف هى اليوم بعد أن علاها المشيب خفضت طرفها حياء من المارة ، وإذا استنهضتها وقلت لها قصى تجربتك مع الحياة والناس فلحت كبد الأمر وقالت: ماتكون تجربتك بالنسبة لتجربة الإنسان المديدة؟ وهل ممكن أن تكون هناك تجربة ناضجة وقارئ لها مستفيد ...؟ هذا هو الخطأ فى فهم مايسمى تجربة وما يقال عنه قارئ لها ، فمدخل الإنسان إلى بيت الحياة ومَخْرَجُهُ منها كافيان لمن يبحث عن الحقيقة أن يجد فى هذه الحالة أعظم عظة وأضخم تجربة ، فالحياة هى التى يجب على الإنسان أن يقص أثرها وغموضها وتلونها إذا أراد لنفسه قراءة لم يكتبها فرد أو أفراد أمحلت سنتهم من الغيث .

تلاحق السؤال والجواب فإذا الأعماق البعيدة تبتلع كل سؤال وكل جواب عنه ....!!

يوم تجافت عن الماء الطهور

أبــويّ :

مالبست ثوب الحداد على ميت وارته يداى التراب ، ومانفضت الغبار عن يدى ، ولا أكلت قلبي عليه أحزان وتوشحت بالسواد ، لا لأن الميت بغيض أكل قلبي الحقد عليه ، أبداً .. فما حملت يد الفناء إنساناً إلى مدفنه وظلت تتبع نعشه البغضاء واللعنات إلا حاولت أن أتجافى عن سماعها لأن من يحمل النعش ومن يمشى وراءه حاملا معه أحقاده عليه سيكون غداً أو بعد غد ، هو الجنازة التى يأتى بها الأجل آيبة إلى المدفن وهكذا الحياة والإنسان والموت سير على الأقدام فى اتجاه تلتقى على ورده كل النفوس .

وما تحول النجم من مطلعه إلى مغيبه أو تحول الشباب إلى شيخوخة وهرم أو تحول الربيع إلى خريف بأعسر من تحول الألفاظ الكدرة إلى ماء قراح ، فالكلمة التى تأتى إلى القلم لابسة عباءة الناسك ، وهى ذئب يقطر نابه دماً هى التى عليها الرقيب الذى لاينام ولاينعس طرفه .. فكل مافى هذه العوالم مؤتمن على دوره الذى كلف به يسير

وفق قانونه إلا الإنسان ذاته مسؤول عن أمانته التى ربما ضل عنها وأضاعها أكثر البشر فى هذه الحياة ، والضياع هنا لايكون هناك ..

ما أشق المعاناة على إنسان يهوى داخل ذاته فى دوى كدوى سحب صيف لاتحمل مياهاً لأفواه عطشى فاتحة فاها فى انتظار الرى ، وما أكثر مايمر به الإنسان داخل نفسه من غابات موحشة يتوارى عنها خوفاً من الضياع فى أحراشها . والسير داخل النفس غير السير على ظهر هذه الأرض أو حتى على ظهر كواكب قريبة أو بعيدة . فى يقينى أن أعسر مسيرة مشت فى هذه العوالم الكبرى مسيرة الإنسان نفسه . فهو الذى عبر عن آلامه وعبر عن حيرته وعن سعادته وشقائه وعبر عن فنه وعن غموض هذا الكون فى تساؤلات قلمه ، فهو الشجاع وهو الجبان وهو الخليط الذى لايستطيع عقل أو عقول أن تفرغ الجدل الإنسانى عبر الزمن وتصبه فى قالب واحد لأنه غير متجانس فى مذاقه ، لأنه هو ذاته لم يكن من عنصر التراب فحسب فيأتى النبات معبراً عن التربة التى خرج منها .

يمكن لحضارة العصر ومدنيته أن تقتلع جبلا أو جبالا من فوق جبهة الأرض وتخف فى يدها كريشة لعبت بها الرياح لأن المادة التى تتسلط على مادة مثلها تجور بجور العقل وقدرته على سوقها فى قافلته بعرقوب القدم أو بعصاه أما العقيدة التى رسختها الروح فى قلب المؤمن

فلا يمكن لقوة جائرة مهما كان جناحها أن تقتلعها من مكانها أو تزحزحها قيد أنملة ، فكم قدمت العقيدة فى سبيل الإيمان بها رقاباً كريمة لسيف الجائر على نفسه وعلى الحق !!

أبـويّ :

أهذه الأودية وهذه الشعاب وهذه الجبال الشامخة هى منازلى الأولى ؟ أم أننى أتيت إليها مهاجرا من مكان بعيد لا أعرفه ولا أعرف زمانه ، فهامت روحى وعَظُم عشقى وحبى لهذه الأرض فضربت خيامى فيها وكان من آبائى أولئك العذريون وأولاء الحاتميون وأولئك وأولئك ... الذين لى ولهم شرف النسب إليكما ، أتساءل لأن مادون نسبي إليكما مفازات ينكسر جناح الخيال ويهيضه البعد دون أن يلحق بقبيلة قريبة العهد بكما فيسائلها عن عرقه الذى ينتسب إليه متى وأين أخذ هذا العرق فى اتجاه العروبة .

والسؤال الذى تثيره عندى الآن مدرسة جاءت فى القرن العشرين لتعطينى دروسا فى العروبة وفى خصائص العروبة وفى شمائلها ، ويوم قرأت الدرس لم أجد فيه خصائص الإيثار ولم ينتج عن هذه المدرسة غير القطيعة والتبدد والتوزع وهدم الجار لبيت جاره ، ومن لم يقبل على هذه المدرسة فتح له الآخرون مدارس أكثر بشاعة وأكثر مسخا وأكثر قطيعة فيما بين الله والإنسان . وهنا لا أتساءل تساؤل الحائر أو الشاك فى

نسبه وفى عروبته وفى عقيدته أبدا ، ولكنى عائج رقبتى إلى الوراء فى مثل هذه التساؤلات حتى لايقوم بينى وبين أصالتى وعقيدتى ضباب تثيره الأحقاد والبغضاء والقطيعة والإلحاد والتفسخ الخلقى فأتوه مع من تاه .

فالضباب الذى تثيره فلسفة العصر عند أكثر البشر ويروج له فم هذه الحضارة الذى روّع قلب الجبان وهز كيانه فانجذب إليه انجذاب القطيع ، هو اليوم محتاج إلى قصيدة رثاء تنعى عليه أشياء كثيرة ، ولكن أين القافية وأين الشاعر الذى يجيد نظمها ...؟ لا أحد غير عقل نير ينظم قصيدته من مشاهد هذا الكون ومن الإبداع العظيم الذى فيه لعقل الإنسان اليقظ قافية لم تكن من لغة الإنسان وأعجميته ، ولكنها من كرم الله وعطائه لهذا الإنسان الكادح .

أبـويّ :

كم تساءلت وكم أوقفتنى حيرتى أمام هذا التساؤل مرتبك الخطى مرتعش الفؤاد حين يأخذنى السؤال إلى كيف يظل عاقل غافلاً عن الهداية إلى الله فيرتد إلىّ هذا التساؤل وتعود إلىّ حيرتى حاملة معها الجواب فيضيف إلى حيرتى حيرة .

سلسلة من التساؤلات حول من هو العاقل ...!!..؟ ماهو العقل ..؟ سلسلة لا أطراف لها ولا وسط ولا معالم على طريق البشرية

فتمشى عليه ؟ هل هو فى ميكافيلى هل هو فى نيرون ...؟ هل هو فى فرعون ....؟ هل هو فى هامان ...؟ هل هو فى جنكيز خان ...؟ هل هو فيمن أداروا رحى الحربين العالميتين الأولى والثانية ؟... هل نقول : إن فى هؤلاء عقلا له الحق فى أن يؤسس مدرسة تدرس فيها فلسفة العقل عند هؤلاء ...؟ أنا لا أنفى وجود عقل عندهم لكنى أتصور أنه لم يكن فى معزل عن غرائزهم ورغباتهم ونزعاتهم الشريرة ، أتصور أنه ملتاع آت فى يوم من الأيام محتجا وشاهداً عليهم بأنهم أهانوه فيهم ، وهو الذى أكرم الله الإنسان به فلم يكرموا به أنفسهم . ولكن التصورات وانجذابها إلى ذهن الإنسان من خارج جداره إذا أسلمها إلى فم القلم ليتخلص منها لعل ذهنا آخر يجادل الصور مجادلة متجردة سلم الجوهر من الخبث وظل نقيا ونظيفا ، فما تلوثت يد إنسان وهى فى الماء النظيف أبدا ولكن عندما تمتد إلى الوحل لتشرب منه ثم تكرع لاتجد غير يدٍ ملوثة تجافت عنها النظافة يوم تجافت عن الماء الطهور ....!!

تثـــاقلـت يـــدى

أبــوىّ :

ما أكثر الذين أبعدتهم أقلامهم عن أنفسهم وراحوا يعيبون بها هذا أو يصفقون لذاك دون حياء أو خجل أو مبررات قائم عليها برهان لا يحتمل الشك ، ويقينى أن كل من نسى نفسه وسار فى ضوضاء الحياة تلعب به رياح حاملة معها روائح كريهة لابد أن يجد نفسه فى آخر المطاف قد تبددت وتوزعت ، يشق عليه أن يرقع هذا التصدع أو يروضه حتى يعود إلى ما كان عليه ، وتجربتى مع هذه الحالة أضاءت على أشياء كثيرة من فهمى لأدنى عتبة من عتبات السلم الذاتى ، ويوم عدت إلى نفسى متعباً من سيرى وراء توافه الحياة لم أجد لى مكانا أستريح فيه لأن عودتى جاءت متأخرة مثقلة بأطيان من السذاجة التى عدوت وراءها ، فما أكثر الأيام التى عجزت فيها نفسى أن تحملنى على أكتافها إلى مضجعى لأن ثقل الطين متراكم فى كثافة غلفت كل نافذة يمكن أن يدخل منها نسيم الصبا أو ضوء من نور القمر . وكلما مددت يدى إلى نافذة من نوافذ البيت الذاتى لأفتحها تثاقلت يدى وعجزت

أن تلحق بأدنى نافذة حاولت أن أمد يدى إليها ... وفى هذه الحالة التى غلفتنى بغلاف سميك من التفكير المادى الذى لا أضع له صورة هنا أحار ، فهو جراد منتشر من الصور المادية يفزع منه الفلاح الكادح إذا رآه نازلا بأرضه آكلاً زرعه وثماره وقوته وقوت عياله .

وإذا كانت هذه طبيعة الجراد الذى كثيرا ما روع الكادح فكيف به إذا كان جرادا منتشرًا داخل الذات ، وما يأكله لا نسبة بينه وبين ما يأكله الجراد الذى نراه فى مزارعنا أو صحرائنا .

والنسبة بين صورة وصورة لا يستطيع رجل عادى مثلى أن يعطى عنها وصفاً ، وإن أسفرت عن وجهها وتبدت له ، لأن العمق ليس فى ظلال الصورة التى نراها فى الإنسان أو فى الطبيعة أو فى جمال هذا الكون ، ولكنه فى تأملنا فى أعماق مافينا من هداية إذا لحقنا بها أخرجتنا ولا شك من الضيق إلى السعة ومن الحيرة إلى اليقين ... ولكن متى يكون ذلك ... ؟ هذا الذى أعانى أشد المعاناة من أجل التحول إليه من فوق شرفات المادة التى أقامت لنفسها بنيانا من الطين .

وما فى تربة الإنسان من بنيان متداع أو آخر متماسك لا أرده إلى أن كل التربة تتساوى فى معدنها ، لو أخذنى هذا التفكير الخطأ إلى هدم كل بنيان فى ذهنى وتشكيله فى صورة واحدة لكنت عاقا ومذنبا فى حق تربة إنسان أكرم الله بها عبدا من عباده أتحاشى أن تتساوى هذه فى

ذهنى مع خربة من الطين فى جسد إنسان لم يصنه من التداعى ، فالتربة الصالحة فى الإنسان الصالح لا تجدها خربة ، بل تجدها فى مصلاها قد سمت . إن كان مصلى من التأمل والتفكر أو من ملازمة محراب التعبد آناء الليل وأطراف النهار ، هذا الذى عبرت عنه بهذا الشكل لم يحصل فى تجربتى حتى الآن ولم أخلص بنفسى من ثقل المادة ، ما أكثر ما عجزت أن أنهض وأمشى خطوة واحدة من تراكم الهموم التى بنتها أطيان من الصور على عاتقى ونسجتها على تفكيرى ، ولا يعيبنى أن أعترف بالحقيقة ، وإن كانت مؤلمة ، وقلمى الذى بيدى الآن أملى عليه هذه الرسالة يتردد فى تقبل كل ما يأتى إليه من الألفاظ الهاجية لكل ردئ عندى ، فالذين هربوا عن هجاء أنفسهم وراحوا بأقلامهم يهجون الآخرين ، بل وربما يرمون المحصنات فى هجائهم والمحصنين ماذا يقال عنهم ؟ ونحن نقرأ لهم صباح مساء مثل هذا اللون الذى لم نجده فى صورة من صور الحياة ، ولم نقرأ عنه أو نقرأه إلا فى الإنسان الذى يلهث على الطريق لينهش المارة ؟ .

قد يقول من يقرأ مثل هذه الحالة الشعورية عندى : إنها سكرات الموت تغط كاتبها فى بحر من التشاؤم ، ومن العجز أن يشعر بالحياة وما فيها من مسرات ومباهج ، ولمن يعترض عذره فى ذلك ، فما أنا بمعبر عن هذا أو ذاك ولكنى معبر عن نفسى وعن تفكيرى

الخاص وعن نظرتى للحياة ..

وحتى لا أكون لصًّا يتوارى خلف خرق بالية من التفكير أكون سعيدًا أن يقرأنى قارئ متسامح هذبت نفسه التجربة .

وما فكرة هذه الرسائل بآتية من هلع رجل بائس أكل إيمانه السبع ، فليس التشاؤم أن تحاول أن تستشرف الطريق الذى تمشى عليه وترى النهاية التى يقف بك الطريق أمامها ويقول لك هنا توقف . التشاؤم فى نظرى هو أن يهدم الإنسان إرادته وتعجز أكتافه أن تحمل ولو قليلا من الاعتزاز بكرامته فيذهب وراء أسلوب حياة تدفنه فى غيبوبة من الرقاد الطويل فلا يرى شمسًا ولا يرى قمرًا لأنه فى غيبوبته مخدر وإذا استيقظ استيقظ بائسا أما من يقول لليل أنت ليل وللضحى أنت نهار فسيره فى الظلمة على خطى عقله وتفكيره متساوٍ مع خطى عقله وتفكيره فى ضحى النهار ، بل ربما كان فى جناح الليل غطاء لعابد سهر ليله متأملا مفكرا طالبا للهداية .

كلّ منّا ميَسّر لما خُلق له

أبـويّ :

لا أظنني فيما سأكتبه أرجم أحدًا بالأحجار الثقيلة فهذا الذى نحن عليه قدر تدور حوله تساؤلات كلما أصابنا الألم وأفزعتنا المتناقضات .

ومقام الإنسان وزيارته لهذه الأرض من مكانه الذى تحول منه هو الذى شغل الناس واختلفوا عليه .

ولأنى وأنا أقرأ فى كتاب هذا الكون أن الحياة والإنسان والحيوان وكل ما هو محسوس وملموس من عوالم جاهرة بفلسفتها الخاصة ودورها مع قانونها الطبعى ، أشعر بالفخر والاعتزاز بتلك الحكمة الجليلة التى انبثق عنها دور الإنسان العظيم وسط هذه العوالم الكبرى ....

وحتى لا تجنح بى أخطائى إلى نزعة متعالية وخارجة بى عن قدرى أحنى رقبتى فوق تراب هذه الأرض فى سجدة خاشعة متذللة لتلك الحكمة الإلهية فلولاها لما فُتحت لنا صفحات هذا الكون الواسع وقيل لنا تأملوا واقرءوا وسيحوا ، ولولاها لما ارتقت مرتبتنا عن سوانا من هذه العوالم وما فيها من حياة وأحياء ، ولولاها لما كان لنا حق المجادلة ، فهى

التى حملت معها رواحلها يوم الهبوط الأول كلّ حاجات السفر الطويل من إحساس وشعور ووعى وعقل وفكر ، هذه الرواحل أو هذه المطايا هى التى تدلج بنا ليلاً ونهاراً فى خطى واسعة لا تمل السير ولا تثوى فى مباركها .

سأحاول أن تظل شمس الضحى مشرقة على رسائلى ، فلا تلحق بها غمامة تحجب النور دون مرآى لدور الإنسان ، والمحاولة ، أى محاولة لا تعنى الانضباط مع بشريتى ، فإذا حصل هذا فلأنى الإبن الذى له الميراث وله شرف البنوة لآدم ، فالتركة التى ورثناها وتقاسمناها فيما بيننا كل ونصيبه منها هى اليوم التى نتقاتل من أجلها ونتشاجر ونبنى ونهدم ، نقيم للطاعة مساجدنا مثلما نقيم للمعصية سراديبها ، كل منا ميسر لما خلق له ... والصلاة فى طهارة تناقض كل التناقض الصلاة فى نجاسة ، وما أكثر المصلين فى محاريب النجاسة ... والتساؤلات تثيرها هذه الحالة وهذا التناقض ولا أحد يمكن له أن يبدد الضباب الذى على أفق الإنسان غير الهداية وتكسير كل الأحجار الضخمة التى تبرك فى طريق المارة والمسافرون عبر الخيال يستنهضون الجواب عن كل سؤال من مظانه .

ومطايا سفرى التى أملكها قليلاً مارعت الربيع ، فهى مصابة بالهزال وإن أثارتها من مباركها مطالع النجوم والأقمار وسرمدية الحياة

التى لا تزال منتصرة وترعى مطاياها فى شره ما بعده شره فى أشجار الوادى النفسى سائرة فى ذلك فى مسار الحياة على أقدام لا تمل السير وإن طال المسير... ! !



حضارة هذا الإنسـان أيـن هى ؟

أبـوىّ :

لا أقيس البعيد بخيالى ، ولا أذرعه بالمقاييس الضوئية ، فلا الخيال ولا سرعة الضوء باللذين لى فيهما جناحان لا يجنحان بى عن منازل أحن إليها ، وإلى ذكريات تاهت عنى فى ضباب النفس ، ولن يكون لى جناح لا تهيضه بندقية الرامى إلا حين يلد هذا الجناح ذهنًا لا عسر فى ولادته !!

فما كان خارج أوكار الذات وأعشاشها من فراخ الطير أو فراخ السبع لا أتصور أنه يعانى عسرا فى الولادة وفى التفريخ ، ولكن العسر كل العسر فى ذهن الإنسان ، فهو الذى قص جناح الطير وكسر ناب السبع وولد من التراب والأحجار جناحا لم تكن قوادمه كقوادم العقاب ، فقوادم العقاب مصونة من الخلل تحملها نسمة روحية وتهديها فى مسارها فطرة لا توجهها مراصد العلماء ، فهذا العصفور الصغير الذى يلاعب صغاره هو عندى وفى تصورى أعظم وأكثر بعدا فى إثارة الإحساس والشعور بعظمة الخالق من مركبة الفضاء ، وإن

كانت هى من سلطان الله الذى منحه للإنسان ، فهى تسير سيرًا لا خيار لها فيه ، فالذى يسيرها هو الروح وعقل الإنسان المبدع الذى ألف من المادة هذا الجمل الذى لا تحمله قوائمه ، ولكن تحمله جمجمة الإنسان ، فالأرض التى صارت تقذف بكنوزها فى شتى أنواع المادة إن كانت نفطية أو غيرها إن كانت فى جوف الأرض أو فى أعماق البحار وكذا تلاشى المسافات ونطق الحديد فى لسان ولا لسان سحبان ، كل هذه تزرع الإيمان ولا تزعزعه ، وما الإيمان الساذج بكاف اليوم أن يتكئ عليه الإنسان المسلم ويغمض عينيه عما يجرى فى هذا العصر ، فكثير من السذج غرقوا فى سذاجتهم حين فاجأتهم هذه الحضارة وحملتهم من ترابهم ومن جذورهم ومن أصالتهم ومن مساجدهم على مراكبها وحطت بهم فى منازل ليس فيها قيد على غريزة جائعة ، وكان اللجام الذى ألجمها فى منازلها ـ كما قلت ـ لجاما ساذجا لا يتكئ على صخرة ثابتة من الوعى ومن الفهم ومن القدرة على تخطى الجسور والفخاخ المنصوبة لاصطياد الفريسة وما أبشع صورة تلك الردة التى نازلها الخليفة الأول ! ! فيوم نمر بآثار تلك المعركة ونشعر بصهيل خيولهم وهم يقاتلون المرتدين ويقدمون أرواحهم فى سبيل العقيدة ، ألا نخشى على عالمنا الإسلامى وأبنائنا فيه وبناتنا أن تنقلهم هذه الحضارة وهذه المدنية وهذه المفاجآت العلمية إلى ردة أبشع وأكره من ردة أولئك

الأعراب ! إلى ردة قد تصل إلى الإلحاد ؟؟ وخطأ الإنسان المسلم أن يتجاوز قيم هذه الرسالة فى سرعة دون تروٍّ ودون فهم لعقيدته ودينه وتشريعات هذه العقيدة وعدالتها الاجتماعية فى قفزة حقنها الغرور والطيش والجهل وأن يحكم عليها من خلال ممارسات أكثر المسلمين اليوم . ولكن المحاولة فى الارتكاز على توحيد الله والإيمان بالقضاء والقدر والجزاء والثواب وبكل ما جاءت به رسالة الإسلام يبقى للإنسان أملاً فى رحمة الله ، فما الخطر إلا أن يخرج الإنسان خروجا لا عودة معه إلى فكرة العدم ، وهنا يظل الإنسان فى طينته العدمية قد قطع رقبته وقطع حبل الأمل بيده ! !

أبـويّ :

لهذا الطائر الصغير الذى ينافس طائرا كبيرا على التقاط الحبات الذى غادر أعشاش فراخه ليعود إليها بما اكتسبته حوصلته طريق الى النفس يثير فيها أن لكل مخلوق مسؤوليته فى هذه الحياة ، فالفراخ التى أعشاشها فى أعماق البحار أو على اليابسة لها أمام هذه المسؤولية هداية وفطرة لم تتجاوز بهما قدرها ، فهى والإنسان نزلاء على هذا الكوكب وزوار له ، وسيفترقون ، كل ذاهب إلى ما كتب له ، فالوحوش التى فى غاباتها فى مياه المحيطات أو فى كهوف الجبل أو حائمة فى الفضاء ما هى مسؤوليتها من افتراس الأضعف وقتل الحياة فيه ... ؟

أتساءل لا لأدخل الشك فى أن الحياة للأقوى ولا لأن الحياة قدر الأقوياء وحدهم ، أبدًا ، ولكن الذى أثار فى نفسى مثل هذا التساؤل هو محاولة إثارة الإحساس بالمسؤولية الإنسانية تجاه ما حرم منه الوحش المفترس ولم يحرم منه الإنسان ، فالوحش والطير المفترس ليس لهما فى فطرتهما غير ناب ومخلب . أما الإنسان فهو ليس ذا مخلب ولا ذا ناب فقد أكرم بالعقل وبالفكر وبالإرادة ، وهذا العطاء الكريم إذا حوله الإنسان إلى ناب ومخلب فما هى ميزته عن الوحش أو الطير الكاسر... ؟ فالوحش ما أوجد الرعب على هذه الأرض ولا نسج للحياة كفنها ، بل الذى فعل ذلك فى هذا العصر هو الإنسان المتمدن والمتحضر كما يقال ! !

ومدنية هذا الإنسان وحضارته أين هما ... ؟ أهما فى إحساسه بالمسؤولية الإنسانية ، أم فى مخترعاته ومراكبه وقنابله النووية وبعده عن قلبه وعن روحه وعن المثل العليا بعدًا شاسعا لا تستطيع أن تلحق بها المقاييس الضوئية ؟ فهذه المقاييس هى التى أبعدته عن أن يكون متمدنا وحضاريا ، فالحضارة أو التمدن ليست أكواما من الحديد وأدوات الموت . ولكنها فى تصورى إبداع إنسانى يبنى الحياة ، ويقيم المثل ، ويحرسها فى ضمير الإنسان المضطرب والخائف ، الحضارة والتمدن فى أن ترى الله فى مصلاّك إن كان فى محل عبادتك أو فى داخل نفسك ،

فالذين لا يصلون داخل أنفسهم ولا يرون الله ويعرفونه من خلال مخلوقاته ومن خلال رسالات السماء ومن خلال العقل والوجدان منذا الذى يثق بهم ! منذا يأتمنهم على رغيف فى يد جائع ...؟ وهنا تتداعى مدنيتهم وحضارتهم أمام إيمان رجل بسيط ما ركب مركبة فضائية ولا تحول عن نعليه أو عن جمله أو حصانه أو محراثه أو عن مسجده ، فى هذا الإنسان البسيط رمز للحضارة الإنسانية وللتمدن ، وفى تاريخ البشرية وتاريخ المسلمين نماذج لم تُلبسها مدنية العصر وحضارته كفن الموت والرعب والدمار ، ولكن ألبستها هداية الله أعلى مثال إنسانى يطمئن إليه الإنسان الضعيف مثلما يخشاه القوى ، وهذا ما لا أتصور أن له وجودا إلا فى عهد الرجل العادل ، فقد يتساوى أمامه الضعيف والقوى ، فإذا كانت اليوم هذه الأرض قد كسر ناب الوحش فيها وحل محله ناب رهيب ، وقال أنا متمدن أو ثائر بالمقياس الحضارى والإنسانى ليس فى مركبة نزلت على القمر أو حامت فى الفضاء ، أو ثائر ركب مركبة لم يصنعها فأوجد الشقاء والعذاب والألم لبنى قومه وأهله ، وأقام مناحات لأن الوحش فى الغابة انكسر نابه ، وفارق بين وحش ووحش ، فالوحش الذى نزل على القمر قد يقول مثلما عندى من وحشية وسلبيات عندى إيجابيات لم يسبقنى إليها إنسان . أما وحوش عالم الآخرين فماذا عنهم ، من يكونون ... ؟ ما هى

إيجابياتهم غير الرعب فى قلب أمهاتهم وآبائهم وعماتهم وخالاتهم وفى سبيل ماذا ؟

وفى هذا التحول من فوق حصان العربى عقوق للفارس الذى مشى فى الأزمنة البعيدة ليبنى قيما ومثلا فإذا ما بناه الآباء يعقه الأبناء ، ويحملون فؤوس الدمار ومعاول الهدم ، وهى فؤوس لم يصنعوها ولم يدروا ما هى قد تكون لقمة عيش الإنسان الجائع تحولت إلى وحش كاسر فى يد وحش لم يهبط على القمر ولم يرد على كل احتجاج ضده بأن لدى إيجابيات ! !

هذا الإنسان الذى يتسلسل فى الظلام ويقول : سأطارد النور وأقتله فى عقل الإنسان وفكره فأظلنى بجناحك الذى تسللتُ من تحته ، فالنور ليس لى طاقة أن أراه مشرقا فى قلب رجل أو رجال ، فما أنا إلا وليد الظلام والظلمة لا هدف لى غير تحقيق الظلم والجور وكسر عقول الناس وأفكارهم ، وجعلها وقودًا لنزعاتى وشهواتى وجاهليتى ، ألا تبرأ منه الإنسانية ويبرأ منه العدل ؟

ما أنا فى هذا بالرجل الذى يحاكم الآخرين فى أمانة القاضى ويلقى عليهم وحدهم ملامة الأجيال الآتية وملامة حضارة إنسانية صاح فى أركانها غراب البين من طليطلة والحمراء إلى سد مأرب ، أبدًا ، ومن يغالط الحقائق فليصغ إلى الأحداث من حوله . فقد ذقنا فى تاريخنا

الطويل مرارة التشرذم والضياع كما ذقنا حلاوة الوحدة والخروج بنا من عزلتنا فى القرية أو فى الصحراء إلى عطاء الوحدة وكرمها علينا ، فقد أعطتنا الأمان ، وأعطتنا التآخى وقامت عليها مآذننا ونظامنا وشريعتنا ، فمتى تدرك أمتنا الكبرى هذه الحقيقة وتعمق النظرة : كيف أقام قادتنا فى التاريخ وحدة وحضارة إنسانية ؟؟.

كلما أردت للقلم أن يكون خياليا وأن يكون شاعريا يقبّل مشاهد هذا الكون والطبيعة ولا ينصرف عن هذه القبل إلى أى اتجاه حرن فى يدى وأخذنى إلى عدو كعدو جواد امرئ القيس ، وإن كنت راكبا له دون سرج أو لجام لا أخشى السقوط إن شاء الله فى حفرة من حفر اليأس ...



الحمام الزاجل الجميلة ألحانُه ...

أبـويّ :

لا تتبدد مشاعرى فى فضاء النفس إلا وضاع معها استقرارى ، وبقيت فى كيس من التراب لا نوافذ له يدخل منها خيط من النور ، أو نسمة من نسائم الصبا ، وما هذه الحالة التى فى تجربتى الخاصة إلا وادٍ هجره الرعاة وتجافت عنه قطعانه ، لأن الغيث تجافى عنه وظل ميتا تصفر فيه الرياح ، ولكن متى يكون ذلك ... ؟ يكون حين يفقد الإنسان التصالح بين المادة والروح ، ويختل ميزان العدل بينهما فى مطالب الحياة الجسدية والروحية ، فما حملتُ الجسد إلى كل مائدة تستهويه ، وأكل منها وشرب وعلّ إلا زاد شرهه ، وتلبدت فى سماء النفس غيوم وأورام نتيجة التخمة .

والذين لا يجدون معاناة ولا تبدد مشاعر أو ضياع استقرار فى مثل هذه الحالة لم أقرأ تجربتهم ولا أعرف هل قرأها آخرون غيرى ، ولكنى أعتقد أن الإنسان إذا لم يدرك وبعمق الإدراك إنه لم يكن فى ذاته بئرا فاتحة فاها تبتلع كل ساقية تسقيها من متع الحياة طوفانا تختنق معه الروح

فسوف تعبر به الحياة فوق الطريق الذى اختاره لنفسه وتجافى وتنك
لروحه فى لحظة المتعة التى سينسحب ظلها إلى جذع شجرته عائدا مع
بقفص الاتهام ليدخله فيه ليلقى قصاصه ، فلو حسبت الأيام بشهور
وأعوامها لإنسان أغفل القدر وتناسى الأجل ، ما مدى استطاعته أ
يتمدد فيها لحظة أو لحظات آمنا من ضربات القدر ، قد أكون أو يكو
سواى مجدفا لو قال له أنت آمن فى ليلتك هذه إلى الصباح ، وإ
لم تتجاوز بى المحاولة فى هذه الرسالة التى أمشى معها إلى الخلف الطري
الذى غاب عنى فى ضباب الذاكرة التى شاخت وابيض رأسها وليس
فى إمكانها أن تسير إلى الخلف أكثر من طاقة الشيخ الذى لم يبق بي
وبين الخروج من الشيخوخة إلى الهرم أكثر من لحظات زمنية تعود مع
الطفولة ، ولكن دون نمو فى اتجاه الشباب فليس لى مع المحاولة يق
الإنسان الذى سجلت له ذاكرته كيف سارت به الحياة خطوة خطو
وموقفا موقفا وما لم تستطع الذاكرة أن تلحقه بى الآن ، فذلك لأ
لم أدرِ أن يومًا كيومى هذا آتٍ إلى يطلب منى أن أجتر كل ما خلف
ورائى من يابس ورطب ، من لين وقاس ، وذاكرة لا تعى أكثر
ألصقته فى جدارها الأيام والسنون ، هل هى الذاكرة التى لا نزيل ف
غير توافه الحياة وغير حمق صاحبها الذى قليلا ما أتى لها بكسب حلا
لا شبهة فيه ولا ربا ؟ أم أن هذه رمز لذاكرة كانت نائمة فى مضج

الزمان السرمدى فجاء هذا العصر يوقظها عند بعض البشر فاستيقظت ، فإذا هى على صخرة القمر وإذا هى تقول للذاكرة : أهذا سجل بقى على الرف فى مكتبة الذات البشرية فتناولته يد القدر التى لا مكان فيها للفراغ أو العبث ، ففتحته لإنسان هذا العصر وتسابق القراء له على أقدام عقولهم وأفكارهم ؟ وأنتِ فى الإنسان الملوثة يده تخطين ذكرياته أو مذكراته وبماذا ... ؟ من دماء معارك جائرة فى إنسان جائر ! ! لا أجهد شيخوخة متعبة فى كد ذهن هو الآخر متعب ، فمتاعب الشيخ غير متاعب الشباب ، فالشيخ قد حمل على أكتافه هموم السنين الطويلة ومعاناتها وتجاوزاتها على عتبات لا يجوز تخطيها . والشاب الذى لا يشعر بثقل مثل هذه الهموم على كاهله ولا يدرى أنه ماش فى طريق لابد أن يدرك فى أثنائه أو فى علوه ماطعم الشيخوخة وكيف تحاسب إذا كانت ممن يحسن المحاسبة وشيخوخة لا تحس ولا تعض على بنانها ندما على شباب أضاعته فى توافه المسعى والسلوك ، هى فى تصورى لم تكبر ولم تتخط بها الأعوام والسنون أيام الطفولة العابثة بلعبها .

وسنام الحياة فى إنسان رعى الربيع يوم تمر به على طريق الزمن المديد قافلة أصابها الهزال وتسائله أين منازل قبيلتك التى هطل عليها الغيث ، وبنى هذا السنام الذى يكسر ظهر الجمل من ثقل وزنه لكى

تستضيفنا ولَوْ لوجبة واحدة فقد مسنا الضر ، أتراه كان كريمًا فدعاهم إلى ضيافته ؟

وأليم على الإنسان ألاّ يسمع تغريد حمائم السلام التى ذبحتها أسلحة العصر المدمرة ، فالفجوات الرهيبة التى لا يستطيع جناح الحمام الزاجل أن يتخطاها هى اليوم براكين متفجرة فى عقل الإنسان وقلبه وذهنه وحتى لو غردت له حمامة فى كهف من كهوف جبال الصحراء لاذت به خوفا من كاسر الجناح لم يسمعها من شدة الضجيج وفوضى الذهن ولا أدرى أأرثى هذه الحمائم يوم ألبسها العصر كفن الموت أم أتذكر أيامنا معها يوم كنا شبابا صغارا نحمل بنادقنا لصيد الطيور المباح لنا اصطيادها ونتجافى عنها لأنها طائرنا الجميل الذى يغرد لنا بالسلام فى القرية وفى الصحراء ، لا أذكر أن واحدا منا نحن الصغار عاد إلى بيت أهله بحمامة واحدة كسيرة الجناح نعف عنها وننكس بنادقنا دون جناحها ، وإن كنا جياعا قد لا نجد قوت ليلتنا أو يومنا .

وهذه الذكرى التى حملتها إلىّ حمامة طافت حول ذهنى فذكرتنى بأيامنا معها ، وبأيامنا فى قفار الصحراء تعانق كبرياؤنا الجوزاء فى مسارها ، وهى كبرياء لم تكن خافضة رأسها لغير الله ، ننافس الطير فى الكدح من أجل لقمة العيش النظيفة وإذا لم نجدها فى يومنا صبرنا إلى غدنا .. فالطير الذى يغادر عشه مبكرا ليلتقط الحب ويملأ حوصلته

لفراخه يفعل آباؤنا مثلما فعل وإن كان الطير يجوع وحوصلته مليئة من أجل إيثار فراخه على نفسه .

وهكذا آباؤنا يؤثرون علينا ـ نحن فراخهم فى قلب الصحراء ـ الضيف الذى نزل بهم يقدمون له كدح يومهم وقد يبيتون جياعا إلا من مكارم الأخلاق .

كم من مرة عللت أم أطفالها حتى رقدوا يعانون المسغبة لأن الضيف قُدِّم له ما فى البيت ، ما أكثر قصص الأمهات والآباء فى الصحراء والقرية التى تزرع الإيثار فى نفس الصغير وتعمق فضيلة السخاء والكرم ، ولعل شابا لا يدرى ما حياة الآباء والأجداد ولا يصدق مثل هذا الكلام يسائل آبار النفط متى فتحت أفواهك ؟ ويوم يعرف يومها يدرك أنه يوم التحول فى حياتنا ويوم القصص الذى لابد أن يجادل به قصص الماضى ويحاورها فى أيهما أكرم وأجمل ولكن متى يأتى محاور بين ماض قريب قد يكون موجودا فى ذاكرة كل من علاه المشيب وحاضر نذود أبناءنا عنه بالنصيحة ألا يغرقوا فى تياره ... ؟ فسنام الربيع لابد آكله الصيف .. والتاريخ القريب والبعيد فيه قصص من أكل الصيف سنامه .

ومن ارتاب فى هذه الكلمات البسيطة أو رآها تصورًا لخيال مريض فما عليه إلا أن يسائل الأطلال والرسوم فى هذه الأرض ، وليركب

هدى عقله ويردف معه بنات فكره لعلها تقول له فى هذا المكان رعى الربيع عمروٌ أو زيدٌ ولكن أكلهما الصيف .

وما من صيف أمهل الربيع أن تغنى بلابله وتطرب له بنات الحى أن كن فى قصر كسرى أو قيصر ، أو كن فى خيمة البدوى فى قلب الصحراء . هذه سنة الحياة مع الإنسان والموت مع الربيع والصيف .



إلى أيـن أنـا ذاهـب ؟؟...

أبـويّ :

قبل ساعات كنت جالسًا على قتب سفينة الفضاء[1] سابحة بي فيما فوق السحاب ، وكان قائد السفينة يرخى لها الرسن فتتململ من شدة وخزه لها بعرقوب القدم أو بأنامل اليد .. ويوم تململت وضجرت وظن راكبها أنها تنوى الهبوط إلى ما فوق الثرى ضجر هو الآخر وأصابه الرعب وما حلم إنسان ولا تململ خياله عبر الأزمنة البعيدة أن فى الفضاء طرقًا معبدة سيأتى من يدفع يومًا بمراكبه فيها ، ولكن ما لم يحلم به إنسان فى العصور الخوالى حلم به إنسان العصر فاستيقظ على الحلم ثم فسره ، وهذه الحالة معى ذكرتنى بمطايانا فى الصحراء يوم ننيخها للسفر من واد إلى آخر أو من بلد إلى بلد ونضع على ظهرها القتب وقرب الماء وزاد الطريق ، ثم نودع الأهل ونثير الراحلة وندفع بها فى الصحراء سفينة تمشى على أخفافها ، وإذا أصابها الضجر من عناء السفر ضربنا

---

(١) الطائرة .

رقبتها بالعصا وأرخينا لها الرسن وقلنا لها سيرى ، فالطريق بعيدة ، والبعد هنا قد يكون قفزة واحدة لسفينة الفضاء ، ولكن ذكرانا لظهور المطايا وأسفارنا فى الصحراء قبلنا بهم وبقسوتهم علينا لأن الحياة فى مفهومنا ما هى إلاّ سفر لا إقامة معه ، وكل مسافر لابد وأن تبرك به مطاياه فوق ثرى الأرض إن كانت مراكب فضاء أو مراكب البادية .

وما حلمت أن الأيام قد تنزلنا من فوق ظهور مطايانا إلى مطايا كل ما فيها غريب عنا ، فحتى الآن وبالرغم من تحولنا عن ظهور جمالنا إلى ظهرها لا أستطيع أن أصف ولو جزءًا من جناحها ، كل الذى أراه وأركب ظهره جسم ألّفه ذهن الإنسان وعقله ، وفاجأنى به فى قلب الصحراء ، وقال لى عفّ ظهر مطيتك فقد جاء زمنى فقبلت بذلك على مضض ، ولعل هذا لا يعيبنى ولا يلامس شغاف قلبى ، فقلبى معلق بجبال أجا وسلمى وبجبال تهامة وبكل ذرة من رمال الصحراء فى الجزيرة العربية ولا عصبية فى ذلك ، فحب قيس لليلى أو جميل لبثينة أو كثير لعزة أو امرئ القيس لراكبة الجمل لم يقل عنهم إنهم بذلك متعصبون ضد سكان الحى ، فَمنْ يَرَهُم فى خفقات قلوبهم يَرَ الرموز الكبيرة فى الحب ، وما أكثر ما ضربنا خيامنا فى منازلهم ! وساءلنا هذه المنازل أين مدافنهم ؟ وأين لقاءاتهم ؟ وإذا كان السؤال لا يأتى بالجواب ماشيًا على قدميه فإن الجبل وإن الوادى وإن الشعب وإن

كثبان الرمال تثير الإحساس فينا والشعور بالجواب ، وإن كان الزمن بيننا وبينهم بعيدًا فى أعماق السنين الطويلة ، فليس من فى التراب دفينًا هو الذى ننتظر منه الجواب ، ولكن الرسوم والأطلال وآثار الخطى التى تستضيف الذهن وتقول له حفظت لك ذاكرتى فى هذه المنازل الضيافة التى فى هذه القيعان وفى هذه النجوم التى سمعت خفقات القلوب وهمسات الحب فخذ مكانك فى هذه الصحراء حيثما شئت ، واركب جناح الخيال لترى فى خفقات هذا الجناح ما لم تره من ثقل المادة فى جناح مركبة الفضاء ، ولعل نزول قطرات من فم غمامة حطتها على روض مربع أو على وادٍ فى طريقه إليه تضفى عليك ثوبًا من الإحساس بالأمان والسعادة ، وإن كانت راحلتك قدمك أو جملك أو حصانك أو حبك لهذه الرسوم ولهذه الأطلال فمقياس العصر للبعيد بالمقاييس الضوئية لم يعطه الأمان والسعادة ، ولكن فى مقعدك بجانب صخرة فى هذا الوادى أو ذاك قد يعطيك السعادة قد تهمس فى أذنك خاطرة أن هنا قعد وقعدت عذرى وعذرية . ولا أدرى لماذا تجنح بى دائمًا ذكرياتى عن الصحراء وعن الماضى ولا تهاجر مع من هاجرت به هذه الحضارة ... ؟ ألأنى فى قوقعة لم تتمدد خارج حدود الصحراء ؟ وأنها صاغت تفكيرى ومشاعرى مثلما صاغت لرقبة الجميلة عقدًا من الحب العذرى عند بدويها ... ؟ لعله هذا ولعل محاولتى فى رسائلى الأولى إلى

أبي الطيب « ورسائلي إلى ولدى »[1] فى أن أخلص من هذه القوقعة وأتمدد أكثر ، لم تطلق عقالى الذهني ، فآخذ طريقى إلى عالم لا يعترف بالعزلة ، بل ربما رآنى فيها رسمًا وأطلالاً من رسوم الماضى ، وما لم أستطعه أمن حق أحد أن يدفع بي تجاه اختياره لا اختيارى أنا ... ؟ وإذا دفع بي فإلى أين أنا ذاهب ؟ أيأخذنى معه إلى القمر أو إلى مرحلة من مراحل العلم واكتشافاته ، هذا لو حصل يمكن أن يغريني ويعوضنى عن حنين الجمل وحنيني إليه ، عن راكبة الجمل وعن ساكنة القرية وفى هذه الحالة إذا كان التحول غير ممكن بالنسبة لى ، وهو ممكن لشباب أمتى وصغارها فليس فى قدرتى وفى حيائى وخجلى أن أقول لمن يحسن أن يركب التيار ويسبح فيه ولا يغرق ألق بنفسك فيه باختيارك وبوعيك وبحريتك لا باختيار الآخرين وقيدهم على حريتك وعقلك ، فى هذه الحالة يمكن لك أن تدخل فى منافسة مع القوم الذين يريدون أن يحتكروا لأنفسهم ولحضارتهم المعرفة التى أخذتهم إلى أبعاد لم يرتفع لها جناح قبل اليوم .

والمشكلة عندى أن تفكيرى الذى يفتح فاه كما يفتحه فرخ القطا فى عش أمه ليلتقط الحب من حوصلة أمه وأبيه لا أثق به وبالحبات التى يلتقطها من حوصلة الحياة فى طفولته ، فما هذه الألفاظ بقادرة أن تعبر

(١) عنوان كتاب للمؤلف .

لى عن هدف الحياة مع الإنسان ، فما بين من ركبوا ظهر الفضاء وبين من هو جالس القرفصاء كحالى فى قمة جبل أو قمة كثيب من كثبان الرمال هوة واسعة .. ولهذا أيمكن لى أن أتساءل من منا السعيد .. ؟ من منا الذى يسير فى طريق الكارثة .. ؟ صوت من الأعماق يقول لى لا ترتفع وتذهب بعيدًا فى هذا الارتفاع ابق فى مكانك قريبًا من المدفن لا تسقط من علو يَدوخُ فيه عقلُ الإنسان ويتداعى من هناك جثة هامدة فى فم القبر ! !

جدل ذاتى وانشقاق فى هذا الجدل كانشقاق جيب أخت صخر عليه .. والجدل الذاتى غير الجدال العقيم ، فمجادلة الإنسان لذاته قد تخط له رسالة فى هزيع الليل أو فى وضح النهار تقص له فيها أخبارها وتعرفه إلى مَنْ سكن ديارها ، فلو حصل إنسان على هذه الرسالة لما حار على أفواه الطرقات ، ولما خدعته الصور التى تلقيها الحياة على جداره .

فإذا كان الجدار مهزوزًا مرتعشًا فأنى لصورة أن تستقر عليه ولو للحظة واحدة ، فآخر عهدى بجدارى المتماسك الذى أقامته عندى قيم الصحراء لبنة لبنة ، يوم تحولنا عن جمالنا وخيولنا وركبنا جمال الآخرين وأحصنتهم . وحتى لا يؤخذ علىّ أنى متسوّل ومتصعلك وراء قافلة ليس لى فيها جمل واحد من جمال هذه القافلة التى قادها فى الأرض والسماء

عقل الإنسان الآخر ، أعترف لها دون حسد وحقد عليها بأنها كشفت للإنسان المؤمن بعظمة الخالق مجاهلَ كبرى قد تكون هذه من أهم إيجابياتها لمن له بصرٌ وبصيرةٌ ووجدانٌ يستطعم فى ذوق سليم ما قدمه العلم على مائدته من اكتشافات ووسائل عيش وحياة أذن الله لها بذلك .

وما أكثر ما عدت إلى صحرائنا بعد طواف فى هذا العالم الواسع فحمدت الله على أن لوطنى ولترابى صورة غير كئيبة وغير مرتفع فيها صوت الباطل على صوت الحق ، فآذننا التى نُنادى عليها الرجل المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات « الله أكبر » تتصاغر أمام هذا النداء الجليل كبرياء هذه الحضارة وجبروتها ، فبها نعتز وعليها نعتمد « الله أكبر » .

يوم أدار التغلبى رحاه على قمم جبال اليمامة وقال عن نفسه وقومه :

ملأنا البر حتى ضاقَ عنا

وظهرُ البحر نملؤه سفينا

ثم قال :

إذا بلغ الفطامَ لنا صبىٌّ

تَخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

تتراءى لى على قمم جبال اليمامة صور لهذا البدوى الذى قد يلحق

نسبنا به إذا جاز لنا أن نقسم الأنساب والأدوار ، فهذا البدوى الذى منازله فى أودية نجد قد تجاوز فى كبريائه حدود الصحراء وراح بعيداً وراء فلسفة القوة وهاض بها جناح الاعتدال والتواضع ...

فرضيعٌ لم تفطمه أمه أو كبيرٌ مجلسُه فى الصَدارة من العشيرة هل لفلسفة القوة الحق فى إذلال الحياة إن كانت على التراب أو على مثل هذه الألفاظ العائمة ؟ ، لا .. ثم لا ، ففلسفة القوة فى تجربة الإنسان المطلقة وفى تفكيره هى التى دمرت الحضارات وشوهت الجمال ! !

قد يقول قائل : إن هذا البدوى وإن تجاوز فى فلسفته حدود المعقول وحدود طاقته البشرية له العذر ، لعله انتشى بعد أن رد الإهانة التى لحقت به وبأمه من ملك الحيرة ، ولمن يجد له مبررا فى ذلك رأيه ، ولكن إطلاق حبل الرسن للقوة الجائرة تحدو لها فلسفة هذا أو ذاك هى التى أفرزت من « السوبر مان » أى الإنسان الأعلى فى فلسفة فَيلسوف ألمانيا الحرب العالمية الثانية وربما الأولى وهكذا فى كل عصر وزمان ، ولا أستبعد أن تفرز فلسفة القوة نهاية العالم ، فهى اليوم لم تعد ألفاظًا جائرة على كلمة الحق وحسب ، ولكنها الرعب الذى يعتقله فى غابته توازن القوة بين قوم وقوم ، وفى اليوم الذى يختل هذا التوازن ، كما هو مشاع فى ذهن كل إنسان لن يبقى رضيع على صدر أمه ولا شيخٌ مجلسه فى الصدارة . فكل مشغول بنفسه .....

ومثلى يوم يلقى بمثل هذه الثرثرة عن عاتقه وتتوارى خلفها أوجاعٌ أقعدها السقم وأقعدها الخوف أن تسير مع هذه القافلة الثرثارة ، أهنا أو هناك من يشاركنى فى هذا النوع من الاحتطاب فى غابة يابسة أشجارها ؟ لا أتصور أن هناك إنسانًا لا غابة له ولا أوجاع وأسقام وأشجار يابسة من شدة الظمأ . فمياه الوعى قد تكون ذَرَتْ فوقها رياح النفس طبقات من الرمال ، غطت ودفنت قنواتها ولن ينظِّف المجرى غير استسقاء رب السماء أن يغيث غابة ظمئت إلى الحقيقة .....

وغدًا أو بعد غد أطوى جناح هذه الرسالة وأسلمها إلى صبا نجد لعلها تحمل لها روائح الربيع وتسقيها من مياه الغدير .... !



تصورات أسرجَت أحصِنة من الخيال

أبـوىّ :

ما جلست أخط واحدة من هذه الرسائل على مقعد وثير ، ولا ركّبت جملة على جملة إلا وتساءلت : من ذا الذى يمليها أهو الألم أم الفرح ...؟ ولماذا تتنادى فى الحواس أو فى الخيال جآذر الكلمات أو حمائم الدوح فى شجرة الإنسان ..؟ وفى ظل الشجرة يرقد السبع وعلى أغصانها تتمايل عقبان الجو ونسوره ، مسكينة هى الجآذر ومسكينة هى حمائم الدوح فالوحوش المفترسة فى ظل الشجرة أو على الأغصان تثير الرعب فى قلوبها ، وشجرتى ما ألقحها الخيال ، وما لم يلقحه خيال أو يؤبره فلاح فى أشجار بستانه لايمكن أن يأتى بثمر صالح .

وقلم يقرع فى تلهف باب البيت الذاتى ليستطلع الأخبار وليتعرف إلى ساكن البيت ، هل استطاع فى يد إنسان من البشر أن يملأ صدره بمياه من بئره الذاتية ...؟ ليت هذا حصل وليته يكون معى ، ولكن قد يعرف الإنسان مساره على طريق الريادة الكونية ويدلى بشهادته على أشياء كثيرة كانت مجهولة وغائبة فى سريتها وغائمة آلاف السنين أو

ملايينها ، فإذا الإنسان فى هذا العصر يقوم بالمحاولة ليستنطق الأسرار ويخترق الضباب ، ولكنه مع هذا كله ضعيف البصر قد لا يرى حتى ملامحه الذاتية فكيف بأسرارها وغموضها وارتعاشها على كف الغموض . تصورات أسرجت أحصنة من الخيال ، وأركبتنى على سرج فوق ظهر حصان جامح ظنا منها أننى فارس بنى عبس فإذا الظن ينطرح معى على التراب لأنى ركبت سرجا وركضت حصانا لم أكن فارسه ! !

وقلمى الذى بيدى الآن أحاول أن أدربه على المشى فوق أرضى خطوة خطوة ، ما أكثر ملله وأكثر كسله ! ! ولا أدرى أهذا منه استحياء مِنْ تَقَبُّلِهِ لألفاظٍ لاحياءَ فيها ؟ فمذاقها المُر فى حلقه قد يفسد ذوقه ، ولكن ما كل قلم فى وجهه حياء ، ولا كل من أسقاه أسقاه شراباً عذباً ، فكثير من الأقلام عانت وتعانى من مرارة الألفاظ التى لاتستحى ولا تخجل ! !

فما الغجريات اللواتى يرقصن ويغنين غناء الفرح أو الأحزان بمعبرات عن غجريات النفس ولا عن غجريات الأفكار ، فهن على أفواه السكك أو فى خيامهن وسط الصحراء يسحبن الربابة فى علانية لا هموم عليها ولا أسوار شائكة . ليس لهن منازل فى ناطحات السحاب ولا فى بيت كسرى أو قيصر ، فمنازلهن فى تاريخ الغجريات مجهول ، كما هو

مجهول عندهن النسب ، فهن لا ينتسبن إلى قبيلة ولا إلى فكر هذا أو ذاك ، هن فى حرية الفطرة وعفوية الإنسان الذى هرب من كل القيود وقال : لكم قصر كسرى أنوشروان ، ولكم النفاق ، ولكم الوجوه التى لا تستحى ولنا الفرح ولنا الرقصات على مزمار ما فجع قلب امرىء ولكن أطربه !

ألمذهب الغجريات وفلسفتهن وتعاليهن بالنسب متجاوزات بذلك شرائح الأمم والمجتمعات معنى تجاوزن به فلسفة القوميات وفلسفة تقسيمات هذا الكوكب ..؟ أتساءل لا لأنى فى حكمى أو فى نظرتى لفلسفة غجرية فى الصحراء لا تعرف غير حنين مزمارها ولا تدرى أنه فى هذا العالم تتعاضّ الأفكار والفلسفات نعم ، أتساءل لا لأنى قد زرت خيامها ومنازلها فى هذا العالم وعدت منها عائباً عليها فلسفتها ، ولكنى أعيب عند أكثر البشر غجريات النفس أو غجريات الأفكار التى لارقصات لها إلا على جنائز أركبتها النعش فكرةُ العدم أو فكرة التعالى المتسلطة والتى لا مزمار لها يدفىء الوجدان حنينه .

ويقينى وهو يقين لا أتوارى عنه ولا ألوذ به وراء جدار من الألفاظ العائمة على بحر من السراب أن لنا فى هذه الحياة .

خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشاها

وهذه الخطى ليست خطى جمل أو حصان ينحره صاحبه فينتهى عدما أو ينحره أجله فتنتهى خطاه ، خطى الإنسان شىء آخر ، سارت ولم تقف ولم تنته فى مسارها ، طريق طويل لا نهاية له وإن تصعلكت فكرة العدم ، شىء ذميم وكريه أن يقول إنسان أكرمه الله بالإحساس والشعور والفكر والعقل والروح والإرادة وأعطاه سلطانا واسعا على مملكة كونية كبرى ، مصابيحها وجمالها الكونى يقبّلها عقله وفكره وتقبّله صباح مساء فى عشق لاينذفن فى التراب ولا يضجر منه وجدانه . نعم .. شىء ذميم ومهين أن يقول لاشىء غير فكرة العدم . وملاذى فى كهوف الحيات أو فى غابات الوحوش ومعى إيمانى ومعى وعيى للطريق الذى أمشى عليه لايخيفنى ، فقدرى وقدر كل إنسان إن كان فى مثل هذه الحالة من التصور أو فى حالة من التداعى المرتعش بدنه من الخوف يتساويان أمام أجل لايؤخره لحظة واحدة هروب كهروب النعامة ، ولا يقدمه لحظة واحدة مخاطرة لم يجد إنسان مضطر غير ركوبها ، ولكن القدم الذى يتجاوز به الإنسان مثل هذه المخاطرة هو الإيمان ، فالإيمان وحده هو الذى حقق المعجزات فى تاريخ الإنسان ، ولكن من يقرأ التاريخ ومن يتعظ .....؟

لا أجلب مطاياى فى أسواق المدينة التى لامبارك لها فى غير نفسى !!! فهى مطايا عفت ظهورها هذه المدنية وأخرجتها من باب

المدينة . وقالت لها أنت والصحراء والبدوي... ولا أدرى ما هذا التناقض عندى ما أبنيه بالأمس أهدمه اليوم وما بين البناء والهدم تمر فى خاطرى أسراب من الجراد تبحث عن الربيع لتحط فيه ، ولكن ليس لى مع هذا التناقض ربيع لا يأكله الصيف ولعلى من هذا التناقض وهذا المد والجزر أستطيع أن أتجاوز مبركاً تثوى فيه ، وتذبل آدميتى التى أكرمها الله ، فما وقعت عينى على قبيح وقالت لى هو هذا ، إلا عدت إلى نفسى أرقبها فإذا ماقالت عنه قبيح ليس صحيحا ، بل القبيح فى نفس مشوشة رؤيتها ، فالجمال لا يكون جمالاً إلا فى نفس إنسان ينظمه شعراً وأغنية يلحنها الجمال فى الطبيعة وفى آفاق هذا الكون ومطالع النجوم . وهذا الإحساس بالجمال يعطى للنفس الحائرة طريقاً تمشى عليه فى اتجاه الانفراج النفسى ، فمن لايسق تربته الذاتية ويرو عطشها من جمال الطبيعة والكون فقد يتداعَ جداره الذاتى ويكون منه مدفن له .

وإيوان كسرى يوم سقط وسد مأرب يوم تداعى ألا يمكن أن نرد ذلك إلى تداعى أخلاق رب القصر ورب سد مأرب ..؟ فما سقط بنيان أقامه الإبداع والفن وسكنه العقل والوعى والإدراك إلا حين يغيب الوعى والعقل فى أسفار لا عودة معها إلى صيانة البينان ، وليس هذا ريادة لقلمى أبداً ، ولكنه يحاول أن يزور منازل الأحداث لتملى

عليه قصتها مع غياب الوعى وحضوره ، وما ينتج عن ذلك ، فليس فى خطى الحياة مايضلل الإنسان الماشى وراءها عن السبب والنتيجة . فالمريض الذى على سريره يستطيع طبيبه أن يقول إنه فى طريقه إلى الموت ، ولكن متى ؟ لاندرى ، قد يكون غدا ، أو بعد غد ، ومثلما يقوله هذا الطبيب عن مريضه يمكن أن تقوله الأسباب عن موت الحضارات ومدها وجزرها .

فمن قال عن الرجل المريض ماقاله ، هو اليوم عليه ملامح المرض أكثر وما علينا نحن البسطاء ونحن الذين نصارع دون قيمنا ومثلنا العليا ودون حقنا فى العيش أحراراً ، إلا أن نفكر وندلى بدلونا فى حرية لاسلطان عليها لأحد غير شريعة الحق والعدل ، واليوم الذى نتوارى فيه عن الطريق ونتركه تمشى عليه الحيات والوحوش الضارية فى هذا العالم لن نعود إليه بل سنتوه فى بيداء من الضياع ... نحن أمة محمد « ﷺ » .

رسالة الصحراء إلى المدينة

أبـوىّ :

لاتجنح سفينةٌ إلى اليابسة إلا حين يضطرب الموج ويضطرب قلب قائد السفينة من هول العاصفة ، ورا كب السفينة غير را كب الجمل ومسيرها وسط الأمواج العاتية غير مسير جمله فى فجاج الصحراء . وجملى الذى أركبه الآن فى رحلة التساؤلات لم يكن جملا يحتمل الرديف . ومسافر فى رحلة شاقة وعلى دروب وعرة وحيد لارديف له يؤنسه أتراه قادراً أن يقطع المفازات الموحشة دون رفيق ...؟ هذا الذى يحيرنى ويثير فى نفسى الرعب ، والرعب الذى يثيره فى النفس ويوحش به قلبا يهتف بالحب وينادى بالأمان ... أتساءل عنه أهو وحشة الإنسان من اليوم الأول الذى هبط فيه على هذا الكوكب ....؟ فصارت ميراثا لنا أم أنها أنياب الذئب البشرى فغرت فاها وأكلت به الأمان جيلا وراء جيل وإنسانا وراء إنسان ؟ لا أدرى . ولكن الجواب لحق بى الآن فقال لقد اقتلع الإنسان أنياب الذئب والضبع ولم يبق فى الغابة ضبع واحد أو ذئب له ناب وقد يكون للخائف عذر فى ذلك ،

فسلطان الإنسان على سكان هذا الكوكب فى المياه أو اليابسة أعطاه قدره مع هذه الرحلة أن يقاتل دون وجوده ودون أمنه ودون سعادته كل الآفات إن كانت ذئبا أو حية أو عقربا أو تمساحا ، إن كانت علة من العلل فى سمائه أو أرضه الذاتية ، ولكن هل حصل هذا ؟ هل أمن ...؟ لا ، انتصر على كل الآفات وعلى كل العلل وعلى كل الجيوش المهاجمة له من ذئاب وتماسيح وحيات ومفازات بعيدة موحشة ، والانتصار قفز به على جناح من التعالى والغرور فإذا القفزة انتكاسة به فى غابة لم يكن ذئبها من ذئاب الجبل ولا تمساحها من مياه المحيطات ولا حيّاتها من أحراش غابة الوادى ، أبدا ، أوقعه فى الانتكاسة الرهيبة محراثه الذى حرث به أرضه الذاتية وأطلق لهذه الذات ساقيتها التى فجرها الحرث فصارت طوفاناً ليست مياهه من مياه السحب ولا من مياه البحار ، ولكنه طوفان من الفوضى النفسية والخلقية ركبت على قناة الرعب والخوف شرفات لم تكن آذانها ملتصقة فى جمجمة مصغية إلى نداءات السلام والحب . وكل الشرفات التى لاتسندها جمجمة آذانها مصغية إلى « الله أكبر » ستهزها الرياح وستتساقط مبعثرة على صخرة الجزاء والثواب ! !

والمعيار الخلقى الذى عليه تكون المحاسبة وعليه تقوم فلسفة الحياة فى الشيخوخة والشباب مَنْذا يستطيع أن يتجاوز به عثرات النفس وعقبات

الطريق فى هذه النفس ؟ مَنْذا يستطيع أن يخوض فى سريرة هذا أو سريرة ذاك ويحمل منجله ويدخل به غابة الإنسان ليحصد منها قوتا لقلمه وفلسفته فيضعها على ظهور مطاياه ويعود منها مناديا على قطعانه أن قد انتهى الورد فإلى الصدَر ! !

وقطعان القبيلة الذاتية عند زيد أو عمرو إذا هاجتها الفوضى والعشوائية وعاثت فسادا فى نفس هذا أو ذاك وعضت بأنيابها السامة أحشاء لم يرقد فيها جنين من سفاح أو فقأت عين دليل العشيرة أيكون فى هذا معيار خلقى نورده أقلامنا العطشى والظامئة إلى الحقيقة ....؟ لايقبل الورد فى هذه الحالة إلا قلم مجرم حليلته وربة بيته الجريمة .

أهذا منى نواح وبكاء على ذكريات علقها الزمن على أشجار هذا الوادى الذى أخط فيه هذه الرسالة ، وهو واد لم يكن فى ذاكرة الزمن البعيد سحابة صيف أثارتها رياح ثم لملمتها فى علو الوادى فأرعدت وأبرقت فطربت لصوتها الآتى وتاقت له هذه الأشجار العطشى ، ومع الصباح تاه فى مهب الرياح برق لمع ثم خلب وابتلعه فى الأفق البعيد أجله مع الحياة والموت .

وما ذرى الجبل البعيد الذى تاقت نفسى الآن إلى الصعود إليه بقامة .

جبل قام فى خيالى ثم تبعثر لأن البناء فى هندسة الخيال غيره فى

هندسة الإبداع الكونى .. أرقب حركة الغيوم فى سمائى وفى أرضى وما بين جناح الغيوم من فجوات وبين فجوات التربة عندى تتسع الشقة فتعجز خطى الجمل الذهنى عن قطع المسافة لحمل رسالة الصحراء إلى المدينة ، وهنا أعطى قطيعى حرية الاختيار فى أن يظل معتقلا فى مبركه أو أن يسير فى فجاج الصحراء وإن كانت غدران الوادى جافة وظامئة وسحب السماء بددتها الرياح ، حقيقة لم تكن طرفا ناعسًا فى جفن الزمن ، فالنعاس فى جفن الإنسان وفى وعيه إذا نعس مساء واستيقظ صباحا فعلى ماذا استيقظ وعلى ماذا نعس .. ؟ هنا يتحفظ السؤال فى تقبل الجواب الآتى من إنسان تسأله هل رأيت الضحى .. ؟ هل له عندك صورة غير صورة الظلام ؟

تحار فى مثل هذه الحالات التى تسجلها التجربة والملاحظة عبر الزمن عقول ما أفلت أفول نجوم هوت فى الظلام وظلّت مفترشة له وملتحفة ولاينتظرها صباح ....

ومساءلة الكواكب والنجوم أو الرسوم التى ضربت فيها العشيرة خيامها ثم رحلت وغابت عن قصاص الأثر فى أفق المجهول أعندها استجابة وجواب للسؤال ..؟ فأودية النفس وأشجارها والساكنات فيها حارة لايعرف الجار فيها جاره ولا الجارة جارتها ، أتساءل لعل جوابا يتسلل إلى هذه الحارة التى أغلق كل من فيها على سريته وعلى ملامحه

وعلى هويته بيته وقال هذه حارة الصمت وقريته النفسية ، القرية المعقدة الدروب التى يمكن للعلم أن يصعد بجناحه إلى أبعد كوكب فى هذا الكون ثم يعود منه قاصاً علينا أخباره ، ويقف عاجزاً عن معرفتها ! ! وهنا يتعقد السؤال فى فم الجواب على باب النفس الإنسانية حائراً حيرة قلمى وقدمى فى هذه الصحراء النفسية .

والصورة التى بنتها مسؤولية الإنسان على حائطه وقلنا عنها ما أقبحها وأجملها ! ما أكثر ماعبرت أو صمتت ! لا أبنى تساؤلاتى على رمال من الخيال وأتركها للرياح تعبث بها وتبددها فيضيع معها إيمانى وجهدى فى السير وراء الحقيقة ، فلا شىء فى هذا الكون الواسع يساوى نفسا لطفل حطته أمه توًّا على باب الحياة ليبنى قريته لبنة لبنة فى يومه وغده وسنته إلى أن تأخذ القرية قدرها مع الحياة ثم تتهدم حيطانها ، وهكذا قرية تقوم وأخرى تموت ...

إذا عبرت عن الإنسان تعبيراً صحراوياً وقلت عنه إنه قرية أأنا بهذا أحط من مرتبته أم أعلو به فى بنائه الذاتى ...؟ لا أستطيع أن أقول فى هذا التعبير إنه صواب أو خطأ ، ولكنى أحمل على أكتاف هذه القرية كل ثقل هذا الكون وكل مافيه من شموس وأقمار وأسرار ، فهى التى وحدها تتلقى الجمال والعبرة والدفء الروحى فى قلبها حين تصعد إلى سطح القرية ومن فوق سطحها ترى عظمة الله فى فكر متأمل وعقل

لايخور كالثور الذبيح فى حلبة الصراع .

فى هذه الرسائل الخاضعة كل الخضوع « للأسمى » ساءلت نفسى كثيرا ما هذا الذى يثير عندى مثل هذا التداعى ؟ أهو غثاء أو ثغاء أو حشرجة نفس أو عصبية ضربت خيامها فى قفر موحش فهاجها الشوق إلى الرحيل وراء قافلة الإنسان الذى هزم القبيلة وبارت عنده العصبية فتاق إلى تحريك القدم فى اتجاه عالم لم تطو العصبية جناحها عليه وأقول هذا هو عالمى الخاص لاشريك لى فيه ولامنازع ينازعنى تميزى فى لونى وجنسى ونقاوة دمى ، لا فدمُ الشهداء غير دم الفجار ، وعند هذه المعركة الإنسانية فى التاريخ البشرى يكون للتمايز وللمفاضلة حق الافتخار والخلود ... !



أأبقى مع همومى فى حشرجة الألم؟؟

أبـوىّ :

إذا تباعدت فى آفاقها صور جميلة ، ولم تقبل أن تضاجع ذهنى وتسكن قلبى ، أأتركها شاردة فى الفضاء بدداً وأبقى مع همومى فى حشرجة الألم ...؟

تساؤل لم يركب جناح الخيال ليهرب به من قبضة يدى فتبقى فارغة فراغ قلب الملحد أو من ركب الفلاة فخانته قربتُه يوم عاد إليها يابساً ريقه من الظمأ .

والجبل الذى أثقل صدر الأرض وتعالى عليها ، بقممه أهو فى نظام الحياة جبار لم يخضع لسواسية الأشياء ...؟ أله أنف يتعالى به على السفح ...؟ أله ذراع يبطش بها ...؟ أم أنه حارس يقف على قدميه فى سرمدية الزمن يحمل مسؤولية عظمى ؟ أتصور أن هذه رسالته ، وأنها لم تكن عبثاً لاتعبر عن أعظم معنى وأجل تكليف فهو فى قلبى الآن قارئ يملى علىّ صوراً لم يكن جناحُها كجناح الغراب ، ولكنها أهدى

من جناح القطاة وأقوى من جناح العقاب ، هى صور لا أستجديها من عدسة المصور فتأتى الصورة ميتة من عدسة ميتة . هى لم تكن مِنْ عبث الذهن المشوش أو عبث الأطفال بلعبهم وبفوضى البيت الذى لاربة له ولا رب يُقرّان النظام فيه . والأطفال من هم ...؟ ولماذا نتهمهم وحدَهم بالطفولة ...؟ الطفل إن كان رضيعاً أو يتدرب على السير يقوم فيسقط وهكذا إلى أن يقف ، أهذا هو الطفل فُندِينُه بمثل هذه النظرة عنه أم نتجاوزه ونمشى معه فى سيره إلى أن يبلغ أقصى العمر ثم نلقى بملاحظتنا عليه ...؟ أهو الطفل الرضيع أم أن الطفل هو الذى شاب شعره وانحنى ظهره دون أن تفارقه الطفولة ...؟ معيار الحكم على الأشياء معلق فى أيد كثيرة منذ أن هبط الإنسان على هذه الأرض ، كل حامل معه معياره ، يدين به هذا وذاك ، ويلغى كل جادة سار عليها إنسانٌ قبله ، فما تكاثر السبل والطرق فى عقل الإنسان وذهنه ووجدانه إلا خطى ملت القيد كما ملته ضالة الإبل فهربتْ فى فجاج الأرض فراراً منه . وفجاج الأرض الواسعة التى تجثو الجبال على صدرها ماذا عنها ....؟

أهى أنثى عقيم لاتحمل جنيناً فى رحمها أم أنها مليئة بالأجنة ؟ وقف الجبل حارساً عليها من أن تميد بها قبل أن يؤذن لها بذلك ، هذا ما أستوحيه من عقيدتى التى سبقت مراصد العلماء واكتشافاتهم عنها

وعن حركتها الدائبة بآلاف السنين أو ملايينها .

وضوء القمر يوم يستقبله كوكبنا أهما شقيقان افترقا فى الرحلة الزمنية فاشتاق الأخ لأخيه فزاره فى آخر العمر ...؟ فماذا عاد به هذا الزائر من هناك ...؟ لاشىء ، وجد شقيقه عقيما لم ينجب حياةً ولم يلبس زينته لزائر القرن العشرين ! !

وأم هذين الطفلين الجميلين اللذين يرضعان من ثديها ضياءً لا يأفل ولاتخلف ميعاده مع الميقات ألا نحنى رؤوسنا وأفئدتنا إجلالا وخضوعاً للإله الذى وهبنا هذه الحياة ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ...؟ فتزاور كواعب الفضاء فى وجه مشرق لاعبوس فيه ألا يستحق من ينظم فيه القصائد الجميلة ...؟ ويعلو معه بأدبنا وقراءاتنا ...؟ كفى تسكعاً فوق التراب ... ! !

ألا نبنى مدارسنا وجامعاتنا فوق النجوم ونعلى مآذننا شكراً لله من فوق قممها ؟؟

وقائلة لمصمم بنيانها من مدارسنا أو جامعاتنا أبقنى هنا فإنى أتصور أن يكون لى جناح ، ألا نباغتها فى مأمنها الذى ظنت أنه بيت القصيد ونُجرى معها حوار العصر ونُشير إليها أن أبصرى دروبه التى عبدها إلى الفضاء إنسان لم يكن له قرآن كريم ولم يكن له علماء أرادوا فى التاريخ فكسرت إرادتهم ....؟

وإرادة كل سؤال لاجواب عنه عندى أأكسر ساقها حتى لاتمشى قدمها على واحدة من رسائلى ..؟ أم أتركها تضع قدمها الثقيلة على وجه مثل هذه الرسالة ...؟ لاخيار لى فى القبول أو الرفض ، فالخيار لمن يملك حريته فى طريق غير مزدحمة بالضجيج الذى يخنق النفَس ويعكر صفاء العقل والذهن .

فجالبات الهموم من بطن الظلام أو جالبات الفرح من مطالع النجوم والأقمار والشموس أين منازلهن فينا فنقتحم المنازل لنرى ما كان غامضاً ومجهولا فنصالحه ونستقبل مايروق لنا ونرفض مالايروق ؟ وبهذا نضاجع أحلاما جميلة ، تَصُور أخرق قاده الهلع إلى فم القلم ، لو حصل هذا وسقط الغطاء لبارت الحياة وتساوى الرجال الشجعان مع الجبناء والهُبْل مع الحكماء ، فرياح الحياة التى تثيرها ظروف الإنسان ومسلكه فيها هى عقابه أو ثوابه ..

وطريق لاتستطيع مركبة فضاء أو جناح عقاب أو طاغية أن يميل عنه قيد أنملة ويتركه للضعفاء والبسطاء وممن لا رجفة فى قلوبهم من الخوف والهلع ألا نبنى على جنباته قلاعاً من الإيمان بقضاء الله وقدره فينا ، نحن البشر ، ولقارىء تهدم بنيانه وصار إلى خرائب عششت فيها الهوام وباضت ثم فرخت ...؟ ليته ينحى هذه الرسالة من يده ويحمل عوضاً عنها فى ذهن متأمل وعقل متفتح الصورة العظيمة لهذا الكون

البديع لعل نسمة صبًا تتسلل إلى فؤاده فيستعيد صحته ، فما الحياة بمسراتها وآلامها إلا صراع وكفاح وكدح تجرى به مقاديرنا مع الخير والشر فى فجاج واسعةٍ من المسؤولية ...!!



كلُّ جَيْبٍ سيُخلِقُهُ الزمن !!

أبـويّ :

يوم أدنتني السنون من رحلة العمر ، وشارفت بي على آخر الرحلة ، ولاح لى من قريب مضجعى مع القدر المحتوم ، تحاملت على شيخوختى ووقفت أمام مرآتى لا لأتصابى أمامها ولا لأذرف الدمع ساخناً على جَيْب أبلى الزمن جدته ... أبدا ، فكل جَيْب سيخلفه الزمن ويصيبه البلى وإن عطّره .... فالمرآة الزمنية قائلة له : « وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ....؟ » السِوار الجميل فى المعصم الجميل هل عصم الجميلة ..؟ ومرآتها التى علقتها على حائطها ووقفت أمامها فى سن العشرين أو الثلاثين وتاهت على أم السبعين أو الثمانين أتراه غاب عنها أن يوما آتياً على عجل سترى فيه نفسها فى مرآتها وردة ذبلت ولم يبق غير من يمن عليها بنقلها إلى المدفن ، لعب فى يد الحياة أمانى الإنسان وهواجسه وتجاوزاته ، وما لفظته من جمل على فم القلم حافية أو منتعلة مالذتُ بها فى ظل ظليل وارفة أشجاره وممورقة أغصانه فى اخضرار لا يلفحه الهجير....!

ومطاياى التى أركبتنى إياها السنون الطويلة ومشت بى حثيثاً فى اتجاه يومى هذا أأعقرها ؟ أأدفنها فى رمال الصحراء ...؟ تساءلت والقلم ينتفض من شدة ثقله على يدى وعلى عقلى وعلى أمانتى ، تلونت فى خاطرى صور زمنية على جبينها وضعت قبلتى تكريما لها واعتزازاً بها فى تضادها وفى ملحمتها الكبرى بين الأخ وأخيه ، بين القلم والقلم ، بين الهاجع واليقظ ، بين من يريد ولايكتفى وبين من لايريد ويقول كفى ...... تلاحقت الصور من علو الزمن ، تجاوزت بى عتبة البيت ، وقالت لى : ضلال ما بعده ضلال أن تحرقنى أو تدفننى فى الرمال أو تعقر جمالى التى مشت فى دروب الصحراء الوعرة فى هزيع الليل أو فى الهاجرة تقطع المسافات البعيدة لتحقق الآمال العراض ، هذا الذى حصل ، ولا أدرى أمن الأمانة أن يدفن الإنسان فى مدافن العدم حقائقَ لم تكن خرافة ولم تكن مواليد لخيالٍ مريض أو منحرف عن الجادة ...؟ أتساءل هل تروع الحقيقة جباناً لم تمهده أمه فى مهاد مهدت فيه أم الفاروق عُمَرَ وليدَها ...؟ والسؤال أو الجواب عنه لايُلزمنى أن ألاحق الحدث فأضع له من تصوراتى الخاصة لوناً قد يزرى به أو يُغرقه فى قبح مرآى له ....

وهذا الذى يحير من ينوى المسير وراء رحلة العمر ، أتراه قيداً يستطيع الإنسان أن يحطمه ليمتلك حريته فيمشى فى خطى واثقة بأن

القدم لاتمشى على رمال متحركة أو فى اتجاه سراب ضللها ...؟ فلوعة من يمشى على رمال متحركة فى أعماق أو على قيعان يتراءى فيها السراب داخل النفس هى اللوعة التى لامخرج منها إلى سرمدية البذار ، والنبات والحصاد فى آدم البعيد أو آدم العصر أو فى آدم الغد قلبا الظنون فى أقداحنا وسقياها للظامئين إلى الشراب وقالا لهم : هذا هو اليقين ، يوم حملتُ قلمى وجالست ظنونى أو أفكارى أو ذكرياتى أو مافى أوراق تسربلت حواء الولود بجلباب زمنى سرمدى مهما مد له الإنسان عنقه وحاول استشراف هذا العلو تقاصرت رقبته وأوجعه مخاض الأم التى تحمل الجنين فى أحشائها ثم ترسله مع قدره ، وما أكثر الذين خانهم الحظ ورمتهم الحياة بسهم قاتل ...!!

لى مع فلسفة الاعتراض حكايات كثيرة ومواقف رهيبة من الداخل والخارج من الظلام والنور ، من فلسفة هذا أو ذاك وعلى موقد الذات صرت أقرأ كل رسالة جاء بها وسواس ، ثم خنست فألقيت بها فى الموقد حتى احترقت جميع أوراق الاعتراض... ولكن أيستطيع الإنسان أن يعيش دون أوراق ..؟ ودون قراءات ودون محاكاة ...؟ هذا الذى لايحتمله عقلى ولا يريق مادته على الرمال ، فتعكير مياه اليقين بمياه الظنون أنشربه على الظمأ ، ونقول هذا هو السبب ؟ لو أقعدتنا فى فراش المرض حمى الكسل العقلى والترهل الفكرى وقالت

لنا : أقم جدارك الذاتى ورقعه كلما تثلم من طين الرغبات إلى أن يتداعى ويسقط طينا أيكون لوجودنا ولحياتنا معنى ...؟

لا أقبل بذلك أبداً ، والقبول والرفض ليسا فى هذه الحالة مقايضة بين غريمين ، فأحكم بينهما على عجل وقدماى تسيران بى على الطريق .

أأتجاوز حيرتى وحيرة أوراقى فى عقل حائر وذهن جافل من القلم ، كما تجفل الربد من صياد يطاردها ؟ لا أدرى ، وقارئ عمرو أو قارئ زيد أو قارئى ، ماذا يقرأ وما لون قراءاته ...؟ من منا فى حروف الهجاء قارئ أو مقروء ...؟ من منا يرسل نفسه على طبيعتها فلا يعتم عليها ...؟ لا أعرف ، ولكنى حتى حروف الهجاء عندى لغز محير... لأنى لم أقرأ لإنسان واحد فك الرموز وأخذنا معه إلى حيث غردت حمامة السلام على أغصان شجرته ، فكل شجرة قُتلت على أغصانها حمامة الدوح وحلَّ محلها غراب البين وبوم الخراب ... إلاّ شجرة واحدة ... وهى شجرة الهداية ولكن من ياترى مقيل فى ظلها من هجير القيظ ...؟

أحلم بالأمل ... وإن طرده الصباح ... وأبقى معه فى مضجعى وإن ألقت علىَّ شمس الضحى حرارة القيظ أبقى ولا أريد أن أفترق والحلم الجميل ... فأحلام اليقظة غير أحلام المنام . فهذه تخيلات لا مرأى لها وغير قابلة لمن يفسر الحلم ، فمن يحلم وهو ماش على قارعة الطريق غير من يحلم وهو فى نعاس عميق ... ما أجمل الحلم وما أبعده فى

الرؤية ، فهو مدخل إلى فجاج لا نهاية لها فى عالم الروح ، وهو قارئ لصور لم تكن فى جاذبيةِ كوكب هنا أو هناك ، هى ملامح أو علامات على طريق لابد وأن يكون للإنسان عليه مسيرة غير مسيرته على هذه الأرض .

والأرض والإنسان والكواكب فى مفهومى فى أيام مضت يوم كانت الصحراء والقرية عالمى والقبيلة وشيخ القبيلة الصورة المثلى والكبرى فى نفسى لم يتجاوز بى مفهومى حارة عمرو إلى حارة أخيه زيد . فمنازل هذا غريمة لمنازل ذاك ، وما بين الغريمين نتلقى الدرس من عمامة الزمن التى أثقلت جمجمته حتى ألصقت رقبته بعاتقيه . ومع الأيام والسنين جاءت إلينا من كل الآفاق رؤوس معممة بعمائم غير عمائم معلمينا ومفسرى الكون لنا ، فإذا أرضنا التى نضرب فوق ظهرها خيامنا ونفتح فى جوفها آبار المياه لسقى قطعاننا أو سقى مزارعنا تنطق لنا بلغة العصر عن أشياء رهيبة وتلقى تفاسير أحلامها أو أحلام المضطجعين عليها فى صور ما حملها قدم ولاجناح عبر الدهور الزمنية البعيدة ، هذه المفاجأة العلمية تثير فى النفس تساؤلات غاضبة على عمامة أثقلت جمجمة معلم أشغل مدرسته فى فوضى بعثرة الصف حتى لم يعد تلميذ متفق مع أخيه فى مفهوم واحد عن الكون والإنسان والأرض ، وحتى لاتتعالى علينا هذه الحضارة المعاصرة بجبروتها ـ نحن أمة العرب

والمسلمين ـ وتقول لنا ها أنذى أسير فى اتجاه النجوم وأسير فى اتجاه فتح بطن الأرض وقراءة أسرارها وأنتم ماذا عنكم ...؟ ألا نقول لهم إن فى رسالتنا الإنسانية تمجيداً للعقل والفكر والدعوة العظيمة إلى السير فى الأرض وفى الكون ، ونبرئ جلال الرسالة من طعنات الأعداء ونتحملها ، نحن العرب والمسلمين ، دونها لعل الطعنات توقظنا على حقائق العلم « فربما صحت الأبدان بالعلل ! ! »

ولمن يتساءل والحالة هذه أن يتحامل على عقله وفكره قبل أن يحمله النعش إلى مدفنه ، ويصعد إلى أدنى قمة جبل من حوله ، ثم يلقى عليه السؤال تلو السؤال من أنت ...؟ ماذا فى جوفك ...؟ ماذا فى صخورك ..؟ ماذا فى سفحك أو فى قمتك ..؟ لم تعد شعابك فى مفهوم العصر مراتع لأغنامنا وإبلنا ولا شيء غير هذا ، فلا خصب فيك إلا حين تهطل عليك مياه السحب لَنفِرَ كبد الأرض ونَهْوِ فى أعماقها متسائلين ما هذا الذى يجرى آلاف السنين أو ملايينها وأنت مبتلعة للسر كاتمة له حاملته إلينا فى هذا العصر؟ لماذا ولماذا هذا العصر وحده .... ؟

أأنت يوم لبست زينتك واستقبلت أبوينا كنت فى هودج الزمن عروسه تلهو بك الحياة وتلعب ... ؟ سؤال يثيره الغموض من مبركه ، فيركب أوعر السبل وأكثرها بعداً وغموضاً ، ولكن حيرة العقل لا حيرة

القدم تفجر من كبد الإنسان الجاهلى مثلى بما أنتِ عليه اليوم خلافا لما أنت عليه بالأمس .

هذا الجناح الذى نبت ريشه من صخوركِ ورمالكِ ومياهك وراح إلى الفضاء ، هذه الخفقات الرهيبة فيما بين عقل الإنسان وبينك كيف لم يخفق بها قلبك لإنسان الماضى البعيد والقريب ... ؟ أتساءل لأنى خائف من أن أجلك وأجل الإنسان معك قد دنا ....

كان الإنسان فى أيامه الأولى عاجزاً أن يصنع منك غير خنجره أو سيفه أو أدوات موقده البسيطة وكنت أنت بخيلة كل البخل لاتسمحين له أن يركب غير قدميه أو دابته التى قد تكون أعسر فى ركوبه لها من سيره على القدمين حافياً مئات الأميال أو آلافها ... كانت خشونتك وقسوتك على الإنسان قد أوجدتا العزلة بين هذا أو ذاك لم يلتق الإنسان مع الإنسان بشكل لا عزلة فيه ولاتقسيمات إلا حين ألقحت عقل الإنسان أو ألقحك بهذه العلوم التى هى من ترابك ومن صخورك ومن عناصرك التى هجعت فى جوفك فى عمرك المديد الذى نجهله ولم نستيقظ إلا على صوت قدر نادى أن أصحوا أيها الراقدون عبر الزمن البعيد ، وليت الراقدين ظلوا فى نعاس عميق ولم يستيقظوا ، وليتهم يوم استيقظوا لم يستيقظوا فى عقول غلاظ القلوب جفاة الطبع لئام البشر . ليتهم يوم استيقظوا استيقظوا على مُثل الشرق وعلى مُثُل الدين

وعلى أمثل النماذج البشرية الذين آمنوا بكرامة الإنسان وباحترام دمه وماله وعرضه وأمنه ! !

إنى وإن كنت بدوياً أجهل ماهى العناصر التى منها تكونت الرؤوس النووية والقنابل الذرية ، ومنها تكونت فى نفس صانعى هذا الرعب حماقة تساوى حماقة هذا الإحباط الذى أرى فيه الزمن يعض على سبابته قائلاً : واأسفاه ! ! أهذه هى النهاية تدنو من المغيب شمسُها ...؟ لن أتفاءل ولن أبشر به فكل شىء فى هذا العالم وما تلقيه هذه الصخرة من أسرار ويأخذها عنها الإنسان الغليظ قلبه لايمكن أن يبقى تفاؤلا سواء أجل هذا الإنسان الغليظ قنابله النووية فى عامنا هذا أو أعوامنا الآتية أو لم يؤجلها ، فإنه وحش كشر عن أنيابه وصار يفترس القطيع البشرى الضعيف فى هذه الأرض التى منحته الأنياب ، وقالت أرسل إلىّ الدماء بحوراً والجثث جبالاً فإنى جائعة فقد أصابنى ما أصابك من جنون ، والنسب بيننا فى هذا الجنون الذى جاء عصره لن يجد من يعتقله بعقال يبقى للحياة فسحة أمل .

معذرة لمن يرى هذا الجنون الذى أخذنى إليه جنون الأرض والإنسان الغليظ فى الغرب أو الشرق والإنسان الذى أفسد الضمائر وأطلق للغريزة المتوحشة الرسن على هذه الأرض ، ليس لما يسمى حضارة القرن العشرين وما يقال عن تقدمها العلمى معنى واحد يبقى

الأمل معه فى صورة جميلة فكل جمال أو تقدم لا يستهدف أمن الإنسان وإسعاده وتطوير فنه وتذوقه للجمال حتى فى الحجر الصلد ، ليس حضارة وليس تقدماً ، وإذا أملت على سلبيات هذه الحضارة مثل هذه الصور القبيحة التى نشاهدها على مسرح هؤلاء وأولئك وأخرجتنى عن اعتدالى فى نظر من لم يعان ما أعانيه فليعذرنى أو لايعذرنى ! !



ذوائب الجميلة لم تعُد على عاتقِها يوم تَرِد الغدير

أبـوىّ :

كلما سحبت القلم من جيبى لأرتاد به منازل الغيث تنملت أناملى وتعثر سير القلم فى خطوة لتعثر الصور التى تَمشى إليه على خفر ، فالخفرات من بنات الذهن لا تتشح بالسواد إلا على جنازة لم يمهلها الأجل لتعاشر الخفرات فى أيام الربيع .

والربيع والخريف فى قانون الحياة غريمان لا تصالح بينهما ولا سبب يعقل به الربيع الصيف ليبقى على شباب الحياة فى الإنسان أو النبات فترة زمنية يغرد فيها الطائر الجميل على أغصان الشجرة وتغرد فيها بلابل الربيع على أفانين روض من رياض الصحراء لم يفسد تربته دخان هذه الحضارة ، وماميلى دائما إلى الفطرة وإلى عفوية الصحراء إلاّ هروب بنفسى من روائح كريهة لا أريد أن تفسد علىّ روائح الخزامى وأشجار الرمث ، فهى اليوم حزينة فى قلب الصحراء لا أحد يضرب خيمته فى واديها أو فى روضها ، لم يعد لها منازل فى سنام الجمل أو فى اجترار ه لها ، فيوم كنا نرحل مطايانا إلى قلب الصحراء ونضرب خيامنا على

جنبات الوادى أو على جنبات الروض أو على جناح الجبل ، ونعانق القمر والنجم البعيد فى أحضان الفطرة والطبيعة تنحسر عنا هموم الحياة ونبقى فى لون من الإحساس والشعور بالجمال الكونى لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنه ولا يستطيع القلم أن يستقبل حالة من السعادة والانشراح يحتمل فيضها .

ولا أدرى أهذا الهروب من سلوك إنسان هذه الحضارة إلى الصحراء ، سببه عندى علة لم تجد لها فى منازل القوم ما يدفن أيام طفولتى وشبابى وذكرياتى عن الصحراء فى قبر عندها جنازته لم تجد من يصلى عليها ويواريها المدفن تساؤل لا يوجد فى ضرعه در فاقت له ناقة البدوى فطال ظمؤه .....

أحن حنين جمل عفت ظهره مراكب الفضاء وتركته والصحراء فى حنين لا يهدأ وتساؤلات : ما هذا الذى حصل ... ؟

ما الآتى وما المنتظر .... ؟ تداع رهيب ما مل السؤال عنه ركوب قتب التساؤلات وإن أضناه الطريق من ثقل السؤال والجواب عنه .

وليست المفاجأة العلمية والراكضة وراء ملامح هذا الكون ووراء أسرار الأرض هى المفاجأة ، فهذه لا تعنى شيئا بالنسبة لإنسان هذا العصر الذى أربكت نفسيته وحنى سلوكه رقبة السؤال عنه إلى ركبتيه فمنذا يستطيع أن يفتح مدرسة لها أبجدية بكر ، ولم تكن ثيبا تعرّف لنا

إنسان هذا العصر ، أهو ابن الذئب إذا جاع اختطف شاة من أطراف القطيع ثم عاد إلى غابته ، أم أننا نتهم الذئب بالعدوانية على قطيع أهمله الراعى ... ؟ لنتجاوز بذلك غابة الذئاب فينا ـ نحن جيل هذا العصر ـ .

لو قابلتنى فى عرض الطريق حيةٌ خرجت من حجرها توا تبحث عمن يأخذ سمومها إليه ، أو وحشٌ ضار انطلق اللحظة من قفصه جائعا إلى الفريسة ، لما خفتهما مثلما أخاف الإنسان فى عرض الطريق أو فى اللقاء معه على مركبة الفضاء ، عذرا فى هذا التشاؤم وفى هذا النوع من عدم الاعتدال ، ذلك أنى أكتب هذه الرسالة فى ظروف نفسية مشحونة بالألم والجزع . فهناك على مطار (مهرباد) تجثو طائرة مليئة بآباء وأمهات لا ذنب لهم ولا ثأر لأحد عليهم قبض عليهم قراصنة الجو يقتلون فيهم ويقطعون أعضاءهم ، وفى النهاية يقال عنهم لاجئون سياسيون ، لا قصاص ولا عدل ولا أمان ولا أمانة ، هذا إذا تجاوزنا به قراصنة الجو والبحر ممن يملكون القوة ولا يملكون الضمير.

عذرا مرة أخرى ، لقد حاولت فى أول هذه الرسالة أن ألوذ بالصحراء والخيمة وأرد موارد أبلى وقطعانى فى منازل قبيلتى ، ولا أسمح لإنسان هذه المدنية وهذه الحضارة وهذه التربية التى تدرب على ما هو أقسى وأفظع من طبيعة الوحش أن يلحق بى ، إلا أن صدى

الأحداث يتجاوب لها الصدى فى جبل الإنسان لا جبل « أجا » أو « جبل سلمى » ....

وتجاوب الصدى فى الجبل أو فى الإنسان لعواء الذئب أو هديل الحمام لا يبتلع دمعا تجاوبت له صدى الأحزان والآلام فى عالم أفلس من كفكفة الدموع ومسح الآلام .

ونَوَرِيَّةٌ نزيلة الصحراء أو بدوية طوت بيت الشعر ذاهبة إلى بيت كسرى أو قيصر أيهما الوريث لقيس وليلى ليضع لفلسفة الصحراء والراحلين عنها والباقين عليها علامات قبل أن يندثر الأثر...

حضارة القرن العشرين ليس لها صحراء كصحراء امرئ القيس ، وليس لها شجرة الخزامى ، وليس فيها ملاعب لظباء الفلاة ، ليس فيها جناح لطائر جميل أو حصان ما أنزل فارسه سرجه عن ظهره .

ذوائب الجميلة لم تعد على عاتقها يوم ترد الغدير ، ولم يعد هودجها حاملها على ظهر الجمل . هى اليوم فارغة يدها من نفل الروض وأُقحوان حاجره ، هى اليوم من ماضغات الكلام ، هى اليوم تلد الجبان وترضعه حليب البقر وتسلمه للأجنبيات ، لم تعد فيهن زرقاء اليمامة ولا أخت صخر ولا أخت ضرار ، ولا أدرى أهذا التحول من شامخات الأنوف من الجبال التى فى قممها يلدن الصقور والعقبان من الرجال الشجعان . مرض العصر أصابتهن عدواه .... ؟

وحضارة العصر أو مدنيته أنقذفها ونرميها بالأحجار لأنها عهرت وفسقت وجارت على أمن الإنسان وقيمه ومثله ....؟ أنبقى عليها جملة وتفصيلا لأن قدما واحدة من أقدامنا لم يكن لها أثر فى مسيرتها من الأرض إلى الفضاء ... ؟

أبدا ليس هذا من أخلاقنا ، نحن العرب ، ولكن من نحن عرب اليوم ؟ ومن هم عرب الأمس ... ؟ هنا يتقاصر خطوى وتتقاصر رقبتى عن الارتفاع ومطاولة رقاب تستشرف الطريق البعيد ، وكلما حاولت أن أتعالى على هذه الحضارة وأقذفها قذف المحصنات قالت لى إيجابياتها من فوق السحاب ومن فوق صخور القمر ، لماذا لم تأخذ قبلى بأمر سجين المحبسين لك يوم قال :

سِرْ إنِ اسْطعتَ فى الهواء رُوَيْدًا

لا اختِيالاً على رُفاتِ العِبادِ ! !

عابرات السبيل يوم يطرقن البيت

أبــويّ :

ما أكثر ما وقفت أمام بيتى الذاتى أطرقه عنيفًا ، أصرخ على من بداخله أن أفتح لى الباب ، وإذا لم تفتحه فافتح لى عليه نافذة وخذنى إليك ضيفا لا جاسوسا يزوِّر كل جميل فيك أو يرميك بالحجر ....

مالى ولمن راد الفضاء أو راد الأرض أو تظاهر فى غرور تظاهر فجر كاذب ... ؟ فمن تجربتى مع نفسى عادت بى هذه التجربة من فجاج فى الأرض أو فى الفضاء ، وقالت لى لا منازل لك فيها ولا سعادة ، فمنازلك التى لا يضيق بك صدرها ولا يكون لكل المحسوسات فى هذا الكون معنى جميل ومنشرح الصدر إلاّ بها هى بين جنبيك حين تضرب خيامك داخل نفسك وترمى فى أعماق هذه النفس كل الأسباب التى لا يتذبذب رشاؤها فى الفراغ .

فما أكثر ما أضاعنا الفراغ فى الفراغ ، وما أكثر ما حملتنى قدماى فوق التراب ، فإذا كل خطو خطوته يوم عدت إليه أبحث عنه لم أجده ، فقد محته الرياح لأنه أثر لتراب على تراب ....

وقامتى التى أعجبنى مرآها يوم كنت ابن عشرين ، أهى التى تقوس ظهرها وشابت لمتها اليوم ... ؟ وهل أيام الشباب الذى مضى وولى وأكله الخريف وحنى ظهره أعطى للحياة فى ذهنى صورا لم تكن عابرة سبيل طرقت بيتى على عجل ، وقالت لى ماذا أنت عليه .... ؟ ثم مشت .... ؟ أبدًا ، فعابرات السبيل يوم يطرقن البيت يطلبن الصدقات أنغلقه فى وجوههن ويطبق الصمت ... ؟ تساؤل عض بشفتيه لا بنابه طارقات البيت . وناب الشفاه فى فم ابنة العشرين هل عض فى منحدر الطريق ابن الستين أو السبعين يوم تقابلا على مفترق الطريق ؟ من نسأل ... ؟ من فى تجربته مثل هذه ... ؟ أنسأل صاحب (آلام فرتر) .. ؟ لو سألناه أتراه يستقبل السؤال الآتى إليه من أودية نجد حاملا معه على جناح السراب تجربته مع الحياة ... ؟

وجناح لم تهضه السنون وتنتف ريشه فى مهب الرياح أين مكانه الذى اعتصم به ... ؟ فلُبَد وهو الطائر الذى غفل الزمن عنه حينًا وتركه يلعب فى الفضاء بجناحه القوى ماذا عنه بعد هذا كله ، يوم سقط على التراب ملىلا من الحياة يسائل المارين به عبر الزمن ، أأخنى علىَّ الدهر وحدى أم ماذا ... ؟ منذا يخلصنى برمية من بندقيته فقد انكسر الجناح وهاضته السنون ؟

ولُبَدُ عند من قال :

سَئِمتُ تكاليفَ الَحياةِ ومَنْ يَعِشْ
ثمانينَ حَوْلاً ـ لا أَبا لكَ ـ يَسْأَم

أتراه وقف على باب بيته وقال هنا وقفت قدمى ولن تدرج خطوة واحدة فى اتجاه متاهات لا بروق فى أفقها ولا غيث ممطر أخيله لرواحلى فأرحل إليه ، فقد تعب الرواد لمنازل الغيث فعادوا إلى وقالوا لا شىء خارج واديك النفسى وخارج أرضك ، ابق حيث هى ودرّب خطاك فى آخرٍ رحلة العمر على السير فى دروب قد يضنيك السير عليها فقد أضعتَ العمر ركضًا وعدوًا فى متاهات يشوى القدم قيظها وتكسر الساق وعورتها .

والظلال لجناح الطير أو جناح السحب أو فروع الشجرة خفقات لقلق قلب الزمن ولصفارات الإنذار . أن كل شىء سائر على عجل فى طريقه الذى فى علوه الذئب فاتحًا فاه فى انتظار كل آت إليه ، وَهَنَ عاتقه عن حمل البندقية ، يهيضه عصفور صغير لو حط عليه .

والبندقية فى مفهوم العصر وفلسفته ماذا عن مستقبل الإنسان معها ... ؟ هل لهذه البندقية كتاب يؤمنها فى طريقها إلى قلب الإنسان وروحه من طبيعة الذئب الذى لا كتاب له ولا فطرة غير فطرة الدم ... ؟ هذا هو السؤال المحير وهذا ما تضطرب له الآن وتخيله فى آفاق الإنسان عينا زرقاء اليمامة ، وهما عينان لم تكذبا فى الريادة ... ؟

وعنتريات العصر ، و (باقل) العصر و (مادر) العصر فى ساحة الوغى أو بيت الضيافة أو على منبر الخطابة يصفق لهم المعجبون بهم على جنبات الطريق الطويل ، وصدق أبو الطيب يوم قال « وشبه الشىء منجذب إليه » ، ويدى التى تحمل قلمى الآن وذهنى الذى يملى عليها مثل هذا النوع من الهذيان ما أكثر ما وقفت فى الصف تصفق للماشين بين الصفوف عبر الزمن .

فجنكيز خان أو هولاكو أو نيرون فى الزمن البعيد أو القريب ما أغراهم على تجاوز بشريتهم إلا الواقفون على جنبات الطريق يهتفون دون وعى ودون فهم لمن يكون هذا ويكون ذاك ، قليل من انسحب من الصف وترك مكانه شاغرا يشير إليه بأنه حمل كرامته الإنسانية على عاتق وعيه وغادر الساحة المبعثرة فيها كرامة الإنسان تحت كبرياء جنكيز خان وغروره أو كسرى أو قيصر ! !

والذين لا يدركون أن كل ماش لابد أن يقف وأن كل واقف لابد أن يتداعى وأن من لم يستجب فى سمو عقلى ونفسى إلى من قال للإنسان الخائف يوم دخل عليه « هون عليك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » لإنسان خاسر... لنجاهد ما استطعنا كل نزعة تتعالى بنا فوق قدرنا وفوق بشريتنا عن غوغائية الصفوف والهتافين لتعظُم وتكبُر فى عالم اختلت فيه القيم « رسالةُ اقرأ » .

ما أكثر النائحات على القبور فى عصر « هيروشيما » وفى عصر الهذيان الذى لا ميزان له ولاقافية ولا برقع من الحياء . فيوم شاخت شجرتى وذبلت أوراقها وتساقطت من فروعها إلى جذعها أخذت مكنستى لأكنسها بها قبل أن تكنسها الرياح ، فنى مثل هذا الرضاع الطفولى من ثدى جف فى فم ظامئ له تتساقط على هذه الأوراق أوراق الخريف عندى ، ولا هدف ولا غاية ولا وسيلة غير هداية الله لضالة كضالة الإبل ... تجوب الفجاج الواسعة تبحث عن مكان مريح هاربة بجريتها من الخطام ومن القيد ولكن ماذا ... نفر من الحمِام إلى الحمِام ... ! !

ليت من بنى الأهرام فى الزمن البعيد أو بنى مركبة الفضاء فى القرن العشرين يعى قدره فلا يسرف فى التعالى ! ! فقوائم ذهنه وعقله آت إليها قدرها مع الحياة والفناء على عجل فلا مكان ولا زمان أمن فيهما رب القصر أو رب الكوخ البسيط ...

فقصر بناه صاحبه من الألماس والأحجار الثمينة يساويه فى هذه الحالة كوخ من القش أو سعف النخل ، ولا أدرى أأنا بهذا أذود الطير عن زرعى الذاتى لكى لا يأكل حبات السنابل أم أننى أعيش الأوهام وأبنى قصورًا من الخيال ومزرعة من الوهم وأقول لأجير : أطرد الطير عن الثمر حتى يستوى فآتى إليك فى وقت الحصاد وأستلمها منك حبة حبة .... ؟؟

ولكن أجيرًا عند (مادِر[1]) قبلي عصي وقال :

لا أذودُ الطيرَ عن شَجَرٍ

قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ مِنْ ثمرِهِ !

وهذا ما أخشاه على مزرعتي الذاتية وأخشاه من نزيل فيها لا يدرك معنى قوله تعالى :

« ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » ! !

وصدق الله العظيم ....



(١) مادر : رجل من العرب موصوف ببخله .

الربيع .. متى عهدى به ؟؟

أبـوىّ :

ما أعسر : ولادة الصور على الإنسان !! وما أكثرها جوعًا وظمأً إذا وُلِدَتْ !! فحاملات الجنين فى أرحامهن تقف على باب منزله قابلتُه لتستقبله من المكان الذى غادره ولن يعود إليه ، ومولودٌ ولد على الفطرة أيجوز أن نفسدها عليه ونصوغه كما نهوى ونريد ؟؟ فذكرياتى عن أيام الطفولة ذكرياتٌ لم يندثر كتابُها ولم تأكله السنون الطويلة ، هى معى وأنا معها فى صراع رهيب ، هى اليوم لم تدر أن شعر مفرِقى قد شاب وأن عصاى فى يدى تسندنى عن السقوط ، هى لم تدرِ ولم تعترف لى أن الزمان وأن الظروف قذفت بى من مكان إلى مكان لا نسب بينه وبين أيام قريتى وطفولتى ، هناك علمونى ما علمته إياهم أمهاتهم وجَدَّاتهم ، حمّلونى مواريثهم وهى مواريث فى عقلى وفى ذهنى ساكنة لا تثيرها الرياح آنذاك ، هى لا تريد لى أن أكبر وأن أغادر فى عصر غزو الفضاء ما علمونى إياه ، قالوا لى هذا هو كل شىء ، عَلَّمونى أن أخذ محراثى لأحرث أرضى من أجل لقمة العيش

الشاقة ولم يعلمونى أن أحرث جمجمتى وتربتى الخاصة ، هم أعطونى عصاى وقالوا لى اسرحْ بمواشيك صباحًا وعد بها إلينا مساء ، قطيع يسرح به واحد من القطيع . علمونى ذلك وما علمونى أن فى الذهن سوارحَ وقطعانًا من الماشية حبيسة فى قفر موحش لم يفكَّ عقالها واحدٌ ويقول لها ارعى الربيع فى تربتك الذاتية ! !

والربيع متى عهدى به ... ؟ متى يبنى للحاشى الصغير سنامه ... ؟ يبنيه حين يطلق عقاله ليستن فى فجاج هذا الكون بذهنه وعقله الذى لم تكسر جناحه أو ساقه تربية البيت الذى لا جناح له ولا ربيع ، ليتنى لم أكبر ، ولم تأخذنى الظروف بقسوة ! ليت هذا حصل ولم أفارق منازلى الأولى ليبقى كل شيء ساكنًا لا تثيره الرياح ! ! فأيام الصيف هى أيامى اليوم كلما حاولتُ أن أعود بها إلى الوراء لأضطجع فى ظل شجرة النخيل أو كهف جبل ، تعودنا ونحن مع أغنامنا وإبلنا أن نلوذ بظله ، قالت لى حضارة العصر ومدنيته لن نأذن لك بذلك ، وفيما بين الأمس واليوم انشطار رهيب يعانيه إنسان مثلى ، وهذه المعاناة هى صخرة الوادى فى ثقلها على عقلى ووجدانى ، هى الثكلى التى مات وحيدها وهى أم السبعين والثمانين ، حائر فى هذه اللحظة فيمن أدين ، أأدين الماضى وأيامنا الأولى أم أدين الحاضر الذى حملنا إلى قلق الفضاء وأعطانا من وسائل العيش والرخاء ما لم يُعطه إنسانٌ فى التاريخ ، فلعل

كسرى أنو شروان أو قيصر فى ظروف حياتهما فى حساب عطاء هذه الحضارة فقيران بائسان والأمور نسبية . هنا على وجه هذه الرسالة يبكى قلمى الآن لبكائى الحزين يوم أغرس سبابة وعى العصر وثقافته فى أعماقى أتحسس فيها ما أودعتْه أيامى الأولى لأتصالح معه ، يعضّنى دون شفقة أو رحمة فأعود دون سبابة ومن يأكل بعضه بعضًا ولا يقبل أن يتنازل قيد أنملة لهذه الحضارة ومراكبها ورخاء عيشها ماذا معه ؟ أتبقى سكينة ... ؟ أيبقى استقرار ... ؟ أتساءل ولا أنتظر الجواب ممن لا يعانى ما أعانيه ، فهذا اللون من الخضيض الذى يرج الذات رجًا عنيفًا ويزلزل سكينتها لا أتصور أنه داء سيصيب بعدواه إنسانًا آخر ، قبل بالرحلة إلى مضرب خيام هذه الحضارة جملةً وتفصيلاً ، ولم يلتفت إلى الوراء ، مشى ولم يقل لن أنساك يا أيام صباى وأيام طفولتى وأيام ارتيادى للربيع لأضرب خيامى فيه لترعاه جمالى ! !

من قلب الفضاء أكتب هذه الرسالة وجملى منيخ فى ذاكرتى ، أكتبها وذكرياتى عن نخلات أبى والطير الجميل الذى يغرد على سعفها يشجينى اليوم لحنُه الجميل ، أكتبها ورفقائى من أطفال القرية لم يكبروا ولم أكبر أيضا ، هناك نلهو ونلعب فى سكك القرية وفى قلب الصحراء ، فالمركبة التى تحملنى الآن إلى الفضاء لا وجود لها فى مشاعرى أو عاطفتى ، لم تخفنى ولم أشعر بوجودى فيها لأنى تركت لها

الجسد وعلقت روحى وأفكارى ومشاعرى على أفواه سكك قريتى ، وهنا أخضعتنى أيامى الأولى إلى أن أبقى مع ما علمتنا إياه الأمهات والآباء والجدات فى القرية والصحراء ، وهو خضوع وطاعة لا خيار لى فيهما ....

وتلون المواقف والصور فى ذهن إنسان متعب ومثقل كاهله مما حملته إياه السنون الطويلة ، كيف به والحالة هكذا ألا يعذره إنسان حتى الآن وهو فى أول الطريق أو آخر مشى على الدرب مغمضًا عينيه عما عليه من واقفات من الهموم حائرات أقدامهن فى الحركة ، فلم يقف يسائلهن ولم يذرفن دمعا أمام عينيه ولم يرفعن صوتًا حزينًا أمام سمعه الذى لا يستقبل أنين حزينات الزمن وحاملات همومه ، لسن من عجائز البيت ، بيت الطين أو الحجر ولكنهن الحبيسات فى ذهن الإنسان وعقله ، وهنا عبر عن ذلك قبلى الشاعر العربى يوم قال :

تَصفُو الحياةُ لِجاهِلٍ أوْ غافِلٍ
عـمّـا مَضى فيها وَمَا يَـتَوَقَّـعُ
وَلِمَنْ يغالِطُ فى الحَقائِقِ نفْسَهُ
وَيَسُومُها طَلَبَ المُحالِ فَتَطْمَعُ

على كبد الغيوم وجناح السحب تتململ بنا الآن مركبة الفضاء[1]
ولا أدرى أهى عطشى ظامئة إلى الورد أم أنها عاهر نزعت عن وجهها برقع الحياء ، وقالت للسحب ليس لك صحراء الآن يخيلك نزيلها ، لم يعد لك غدير يرده الجمل ويرده الطير ويرده الشاعر ليستوحى منه ، لا تقفى فى طريقى ، افسحى لى الطريق فقد ملكت الفضاء وعاشرت النجوم فى طريقى إليها نزعت الرسن من أجل حريتى ، تعالت فوق قدرها فإذا بروق السحب وزلزلة الرعود تصيبها بالارتعاش فتخف فى يد الرعب كريشة تلعب بها الرياح ، وهنا تجلت عظمة الله وتصاغرت كبرياء الإنسان الجاهل ومركبته ، هنا قبلتُ السحب فى قلبى وفى مشاعرى وخلتها لقطعانى وفى منحنى الوادى وجدتها قد حطت مياهها فيه ، وجميلة هى ذكرياتنا عن أيام الغدير والربيع وقمر خمس عشرة وابنة العشرين مَنْ برقع وجهَها الحياء .

ما هذا الذى أكتبه الآن أو ذاك الذى كتبه غيرى وأرسله إلينا حاملا معه صورة زمانه ، صورة عن حياته وحياة جيله إلا حسرات وآلام لم تتوار فى المدفن مع من أرسلها وهنا مربط الفرس ، أين هو الإنسان الذى قال :

---

(١) الطائرة مجازًا .

كُلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالَتْ سلامتُهُ
يومًا على آلةٍ حدباءَ محمولُ

أين هو الإنسان الذى قال لها :
أثنى علىَّ بما علمتِ فإنَّنى
سمحٌ مخالطتى إذا لم أُظلَمِ
فَإذا ظُلِمتُ فَإن ظُلمىَ باسلٌ
مرٌّ مذاقتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَم

أين الإنسان الذى تساءل قائلا :
أينَ الذى الهرمانُ منَ بُنيانِه
ما قومُه ؟ ما يومُه ؟ ما المَصْرَعُ ؟
تَتَخلَّفُ الآثارُ عن أربابِها
زمنًا فيُدرِكُها الفَناءُ فَتَتْبَعُ

أين هذا أو ذاك ... ؟ غدًا أو بعد غد يأتى من يتساءل كتساؤلى هنا ، أين من بنى مركبة الفضاء ... ؟ أين الذى وطئت قدمه صخورَ القمر؟ وهكذا الحياة قدمٌ تمشى وأخرى تتعثر... سؤال تثيره الظروف وآخر ينطرح فى فراشه إلى أن يأتى من يوقظه من منامه .

ويدى الضعيفة الآن وقلمى الذى تحمله ، غدًا أو بعد غد

يفترقان ، كلٌّ ذاهب إلى سبيله ، وهكذا الحياة تنطق لنا بالعبر ولكنْ قليلٌ من يعتبر ، قليل من يفتحُ باب قصره أو نافذة من نوافذه ليطل منها أو منه على الزمن الذى مضى ويسائله ما أخبارك ؟ ليت قيصر اليوم ، ليت كسرى هذا العصر يزوران قيصرَ الأمس وكسرى الماضى ويحلان ضيفين عليهما ثم يعودان إلينا بخبر القوم ! ! نحن الحاشية التى بحّت حناجرنا بالهتاف ليحىَ قيصر اليوم والموت لأعدائه ! ! هتافات لا معنى لها فى قانون الحياة ، ليت فقهاء الحاضر ، ليت مفكريه يصعدون منابر الوعظ على عجل ليحملوا إلينا وعظ الحياة والموت .... ! !

لـيتَ ولـيتُ غـيـرُ مجديـةٍ

إلا استراحـةُ قلبٍ وهو سَوءانُ

ليت قشعريرة الزمن فى يد الأحداث تُدفئ قلبًا سقط عنه اللحاف فى رابعة الشتاء ! ! ليت الأمنيات تسرع إليه فتعيد له الغطاء الذى سقط عنه ، فُعريُ الجسد ليس هو العريُ ، ولكنه عُرْيُ القلب والفؤاد ، والجوع والظمأ فى معدة الإنسان ليسا كالجوع والظمأ فى قلب عاشق متيم بالجمال الروحى حاسرًا عن عاتقه العشق الحسى ، وما يتداعى الآن أو غدًا على قلمى من ألفاظ لا نسب بينها ، هى صراخ من فم غريق يصرخ أين حبل النجاة ؟ سيظل يصرخ ويتابع الصراخ حتى يسكته

الأجل ويرسله إلى هناك ، وهناك تعنى أشياء عظيمة وكبيرة فى نفسى ، ولكنى أتصاغر وأبتلع الألفاظ ، وإن كانت نجومًا وشموسًا وأقمارًا أن تخوض فيما هو كبير وعظيم ....



أفي غمام الذهن ديمٌ وصواعق؟؟..

أبـويّ :

ما أكثر ما سرت متعبا ! ! وما أكثر ما تصبب من ذهني المجهد تساؤلات أثقلت كاهلي ! ! وبدهي أن يبحث الإنسان فى مثل هذه الحالة عن محط استراحة يستظل بظلها ، ولكني كلما سرت لم أجد الشجرة التي طرحت ظلها لابن سبيل متعب ولم أجد حائطا متماسكا طرح ظله له ليستريح فيه .

وشجرة لا ظل لها ليت حاطب ليل يسرى إليها فيجتثها من جذعها وقودا لضيوفه ، وليت جداراً غير متماسك فى بنائه يسقط متداعيا ليكون منه عبرة للمارين به ، أفى هذا منى تجاوز على شجرة الوادى أو على حائطه ... ؟ أبداً فشجرة الوادى الظليلة وصخرته كلما حاولت مطايا الذهن أن تشطح بعيدا عنهما ضربتُ رقابها وأمسكت بحبل الرسن ، وما تعبت مطاياى ولا تسكعت تبحث عن الظل عند شجرة لا ظل لها أو عند حائط معيب إلا زاد تعبي واختنقت روحي ونشف ريقي من الظمأ ، وليس هذا مني زرعا للكلمات فوق الورق . فالذين

يزرعون الألغام فى قلوب البائسات والبائسين غير الذين يزرعون الكلمات ويسقونها من دموعهم ، فإذا كان زرعى للكلمات هنا آتية بذوره من وادٍ نفسى مجدب فما كل من يزرع الكلمات يفعل مثلى ، فكثير من الرجال الطيبين فى تاريخ البشرية زرعوا كلماتهم ونثروا أفكارهم فوق الورق ، ولكن ربما لم تجد من يتذوقها ويزرعها فى مزرعته الخاصة من ذوى الأذواق السليمة ـ وما ربما هنا بنافية أو متطاولة على أرباب الذوق السليم ، وما أكثرهم فى التاريخ ! !

أفى غمام الذهن ديم وصواعق فنخيل أفق الإنسان من فوق ذرى الجبل ؟؟ فسحب السماء يوم تثيرها الرياح وتدمدم بالرعود نقف على جنبات الوادى فى انتظار ما تبعث به إلينا رحمة الله بنا فإذا المياه التى أنزلتها السحب غزيرة تملأ فم الوادى فيضيق بها فى أكثر الحالات فتتداعى أسنانه صخرة وراء صخرة لأن ماحطته السحب يقول لكل شىء يعترض طريقه افسح لى الطريق فإنى سائر إلى النخلات العطاش وإلى الزرع الذى نشفت بئره ، وهناك الإنسان الكادح وصغاره يصلون شكرا لرب الغمام والسحب .

هذه من تجربتنا فى قلب الصحراء التى لا وادى لها كوادى النيل ولا كدجلة والفرات ، ولكنها الرمال المتحركة والصحراء التى يضطرب فيها السراب ، والإنسان الذى لم يقبل بالتحول عنها لأن حبه لأرضه

وإن كانت سرابًا ورمالا متحركة ، قد ملأ قلبه إيمانا وثقة برحمة الله
به ، ينثر حبه ويغرس شجرته ويولد ناقته ويرفع رأسه إلى السماء يارب
رحماك بغرسى وبأطفالى ! ! هذه حياتنا عبر الأجيال ، صبر واحتمال
ولا أدرى أيستطيع صغيرنا اليوم أن يرث هذا الميراث الطويل من الصبر
والاحتمال والاعتزاز بالصحراء ، أم أن عصر غزو الفضاء والنفط
سيدفن ماضينا فى رمال الدهناء ولا يكون لنا فى ذاكرة خبر... ؟

وهنا يتثاقل السؤال من شدة ما على أكتافه من ثقل ما قد تحمله
الأيام من أجوبة لا تستحى ولا تقبل بمن يقول لها تراجعى من حيث
أتيت ، وما طرح السؤال واستشراف البعيد بقاتلين للتفاؤل أبدا ...
ولكنهما يرصدان الأفق ويستطلعان ما ينشأ فيه من غيوم متلبدة فى عصر
كهذا لا أمان له .

وما خوضى فى مياه السحب التى أنزلتها على الوادى يماثل خوضى
فى الوادى الذهنى ، فوادى الذهن ليس له فروع متعلقة بذرى الجبل ،
وليس له شعاب كشعابه ، وهذا هو الذى أحار فيه وأمشى إليه على
حذر ، فسباع الجبل والوادى أرحم بالإنسان من سباع الذهن ، إذا
لم يُدخلها الوعى قفصَ الاتهام ، ويقول لها هذا مكانك فلا تأكلى
روحى وأمنى واستقرارى فما أكله الذئب من سوارح الراعى تلده أنثى
القطيع ، ولكن ما يأكله ذئب الذهن لا تعوضه كل ما فى هذه الحياة

من سوارح فى الأرض أو فى الفضاء لأنه الإيمان والأمل . أحاول أن أتجاوز بهما كل طريق تعترضنى فيه عقبات دونه ودون المسير فى اتجاه الأسمى فمضيق هرمز أو مضيق القناة اللذان عليهما تدور رحى ذئاب العصر وتزمجر وتكشر بأنيابها ويتردد صداها الآن فى نفسى وأنا أخط هذه الرسالة ألا تكونان من الغيوم المتلبدة فى أفقنا فنخيل الأفق على مشارف عقولنا وكرامتنا وأمننا ، فمرضعات أطفالنا والحوامل منهن أهن اللاتى رمزلهن الشاعر القديم فقال :

والـلـيـالى مِنَ الـزمـانِ حُـبالى

مـثـقلاتٌ يَـلِـدْنَ كـلَّ عـجيـب

لا أدرى ما هى بطون الليالى ، وما هى أرحامها ، وما هى الأجنة التى يلدنها ؟ فالشاعر العربى يوم أرسل لنا هذا النذير لم تكن بصيرته آتية إلينا وإلى من قبلنا ولمن يأتى بعدنا على قتب ركبه لا جمل له من الوعى ومن التجربة ، أبدا ، ولكن لماذا لا نستشرف الطريق البعيد الذى خلفناه وراءنا لنرى ما فيه من ليال ولدن كل عجيبة ؟ فيسهل علينا بذلك أن نستشرف الآتى قبل أن يكون من الليالى الحبالى ؟؟ والاستشراف للبعيد هو فى ميراثنا من جدتنا زرقاء اليمامة ، وصخور جبل اليمامة لديها قصتها مع قومها يوم أنذرتهم ولم يستجيبوا لها ، بل قالوا خرفت ، ماذا عنها وعنهم ؟ هى اليوم رمز فى التاريخ لبعد النظر ،

وهم رمز فى التاريخ لقصره .

وما أهلى وقومى الذين فى الجزيرة العربية فى هذا العصر والعصور الخوالى إلا الإرادة العربية المعبرون عنها فى أصالة الجذور ، وما هم فى هذا العصر الهائجة مياهه الكدرة إلا المورد العذب الذى تحاول المياه الكدرة أن تلوثه بكل وسيلة . وإذا كانت كاسحات الألغام اليوم قد نزلت فى مياه البحر تحاول أن تجنى ما زرع فيه من تلوث وألغام ، فأخطر من هذا أن تزرع الألغام فى تربة الإنسان . ولا أدرى ماذا على مسمع الزمن من بروق ورعود فمسمع الإنسان لا يستقبل الصوت إلا حين يكون له صدى ، ولكنه يستطلع الأسباب والمسببات التى تحمل معها النتيجة ، وهذه لم تكن من قصص التاريخ وأحداثه فحسب ، ولكن رسالتنا الإنسانية قالت فى أكرم القول : ﴿ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ شىءٍ سَبَبًا ﴾ فالظل لطائر صغير أو كبير تراه العين المجردة منطرحا على التراب يؤكد له أن هذا ظل لطائر يحوم فى الفضاء دون أن يرفع رأسه إليه .

ورابعة النهار فى ذهن رجل لا تعظه الأحداث ولا يستيقظ على صداها تتساوى عنده مع ظلام الليل ، وما أكثر الذين تساوت عندهم هذه الحالة فى تاريخ البشرية وما عظة الواعظ أو من يقول لك : قدمك على حافة الخطر انتبه ! ! إلاّ حبٌّ لك ورغبة فى أن تعبر الحياة القصيرة فى نظافة اليد والضمير ، وأن تودعك الحياة بالذكر الجميل

وتستقبلك الرحمة فى ثياب المسلم الذى لم يجدف على رسالته ، فلو أحصينا أطول عمر لإنسان فى هذه الحياة وجزأناه : طفولة وشبابا وكهولة وشيخوخة وهرما ورقادا ماذا يمكن أن نخرج به من هذا العمر القصير؟؟

وإذا لم تخذلنى ذاكرتى فقد قرأت أن أحد خلفاء بنى أمية فى الأندلس ولعله الناصر ، لما حضرته الوفاة قال هاتوا لى ورقة وقلما ثم حسب أيام عمره وقال لقد حكمت ما يقارب ستين عاما هذه البلاد وأحصيت أيام سعادتى فيها فإذا هى لا تتجاوز ستة أيام إذا لم يقل ست ساعات ... هذه الذكرى البعيدة فى قراءتى تؤكد أنه قام بهذا الإحصاء ، وقال ما قاله وإن خانتنى الذاكرة فيما بين الساعات والأيام .

فيمكن لكل إنسان لديه القدرة أن يصغى لهذا الإحساس بالمسؤولية أيا كان مكانه منها ويحسب مثلما حسب ، فالسعادة التى لم تتجاوز عند هذا الخليفة الساعات أو الأيام ، وهو يملك كل متع الحياة وكل السلطان وكل القدرة على إدارة الدولة ، ما هى ... ؟ هذا الذى ليتنا قرأناه عنه وليتنا به اتعظنا وبه تجاوزنا اختلافات وتفسيرات جاءت منحدرة من أعالى الزمن يفسر كل منها الحلم بالسعادة . فما بين اليمين واليسار من تطرف فى هذه التفسيرات فجوة واسعة منذ يملؤها

غير الإيمان بتجاوز كل ما هو متطرف ومنشق وخارج على الأمة الوسط ، هذه الأمة ، أمة نبي الهداية (ﷺ) هي التي في تفهمها لواجبها الإنساني تجد السعادة التي لا تقاس بسعادة الفرد ولا بالساعات والأيام ....



ماقصَّت جناحَها يد النسيان !

أبـويّ :

مَنْ رعى الغنم فى شعاب الجبل أو رعى الإبل فى أقصى الفلاة أو رعى الألم من شعاب النفس ، هل عبَّر عنه من قال :

يموتُ راعى الضَّأْنِ فى جَهْلِهِ
مِـيـتَـةَ جـالـيـنوسَ فى طِبِّهِ .

لا أتصور أن لراعى الضأن أو لراعى الإبل مفازات لا منبت فيها للألم ، ففى غابة الذئب يضع الراعى عصاه وينادى عليها أن ارتعى واربعى وما علمت أنها فى غابة جياع ذئابها ! !

حياة لا تجاوزات فيها عن قانونها العادل ، فجالينوس ، وراعى الغنم أجلهما مع الموت والحياة واحد ، فشطحات ذهن هذا ، بعيدًا عن ذهن ذاك ، أنقول إنه سباق فترفيه حَيْل هذا عن اللحاق بذاك ؟ لا أخلط الأوراق فى ذهن جائع إلى الحقيقة .....

أخيل السحب لراعى الضأن ولراعى الإبل لأرسلها إلى منازل الغيث ، ولكن يعود الرواد إلىَّ : أن السحاب الذى يحمل المياه مزقته

الرياح الهوج . وهنا أعود إلى جالينوس أقرع غليه بيته : أن ماشيتى قد هزلت وأصابها المرض هل من جديد لديك يعيد لها صحتها ... ؟ فيفغر فاه ، جئت إلى ، ويدى فارغة ، أنا الآخر مريض ألا يمكن أن تأخذنى إلى الصحراء لأرعى القطيع مع الرعاة ... ؟

أشفقتُ عليه مثلما أشفقتُ على نفسى وعلى رعاة الإبل والضأن ، وأشفقت على جَمَل اغتالت يد العصر شجرته ، شجرة الخزامى وشجرة الرمث وأقفرت منهما الصحراء . ولضوء القمر فى منازل قيس وليلى وجميل بثينة يوم لا قمر صناعى ولا يد أثيمة تغتال الجميل فى الصحراء ، مطالع لا تأفل فى نفس الجميلة والمتيم بها .

ولسُرى الليل مع النجوم الساريات إلى مخادعها فتيان آخى بينهم نزوع إلى الحرية وإلى الإيثار ، هم اليوم فى ذكرياتنا عنهم نجوم لن تلحق بها مراكب العصر لن نقبل أن تدفنهم حضارة العصر فى رمال الصحراء وتقول عنهم خرافة ، وما أجمل الذكريات ! وأعظمها مِنْ سجلٍ يقرأ لنا فى هزيع الليل كلما أصابنا الأرق قصة ما قصت جناحها فى الذاكرة يدُ النسيان ! !

وذاكرة الإنسان هل وعاها ووعى دورها فى حياته .. ؟ لو لم يكن له ذاكرة ماذا عنه ... ؟ ألا تتعطل لديه وتبور الحياة ؟ بماذا يعيش وعلى ماذا يتكئ ... ؟ ويضع قدمه العقلية والذهنية فى سرمدية

الزمن ، وما مضى أو حضر أو ما هو آت بالذاكرة تتداعى كل صورة علقها حدث من الأحداث فى زمن من الأزمان على خاطر الإنسان فيختار منها ما يروق له ويحتاجه فى ظرف ، ويبقى ما لم يحتج له فى مكانه الذى أتى منه لتحتفظ به ذاكرته رصيداً له بالذاكرة وبالخيال يتجاوز الإنسان كثيرا من متاعبه وآلامه ويعانق أحلامًا جميلة ، وهو يمشى فى زحام الشارع العام ، أو فى زاوية من زوايا الأرض ، فمن الخيال ومن سجل الذاكرة ولدت مراكب الفضاء ومنهما قد يأتى ما لم يكن فى الحسبان ، فذاكرتى الآن وهى ذاكرة بدوى كثيرًا ما عجز أن يحصى قطيعه يوم يأتيه به الراعى هى التى أستجديها أن تفسح لى الطريق إلى مواريثها وإلى ما فيها من نزلاء .

رثائى لإنسان لا يستدعى ذاكرته ويسائلها ماذا عندك وماذا فيك من أحداث ومن عِبَر ؟ يسائلها لتقص غِيَر الزمان والمكان ثم يُلحق بها الخيال ويأذن له أن يستشرف المستقبل له على ضوء خبرته بالماضى فما ضاع فى بيداء الحياة إلا إنسان لم يسائل ذاكرته أين علامات الطريق الذى أمشى عليه ... ؟

تصورات لا أثق بها ولا أزكيها من التزوير ومن الغموض ، كل شىء فى هذه الحياة إذا لم نمش إليه على حذر فقد لا نتجاوز حفر الطريق بسلام !!

وذاكرة الزمن هي ذاكرة الإنسان ، وهي مطيته التي ما ملت السير وإن طال الطريق ، زمن يوزع الأدوار حيث ترث الأسباب أو تقوى ....

وسرعة الضوء فى مقاييس العصر هل بينها وبين النهاية سباق وإلى أين ... ؟ هذا الذى منتظر أن يأتى به المستقبل حاملاً معه الجواب على قتب لن يستريح عليه راكبه ... وما بينى وبين التشاؤم والتفاؤل من صراع رهيب فى كل رسالة ، أتجاوز بها نفسى إلى فم القلم أقع فى التناقض فى أسرع من بارقة الصيف واختفائها تحت جناح سحابة لم تنزل الغيث ، ولكنى أحاول ألا أركب الخطر...

فى كل ماكتبته حاولت أن أشوى الكلمات لتأتى ناضجة ، ولكنى موقد الذهن عندى لم يتقد ، بل ظل باردًا فجاءت الكلمات باردة والألفاظ غير دافئة ، وهكذا الحياة والإنسان نُعاس فى غسق الليل ، وأحلام اليقظة فى ضحى النهار ، كل يغنى على ليلاه معجبة به ابنته أو حليلته ، وفى ثياب العجب نسى الكفن والنعش ويوم تقف الأحداث فى أفق الإنسان تنتظر دورها فى زيارته ، أفى إمكانه أن يغلق باب منزله ويرفض الزيارة ... ؟ أبدًا ، إن طارقات الليل عبر الشاعر القديم عنهن بقوله :

سَكَتَ الدهرُ زمانًا عَنْهُمُ
ثمَّ أَبكاهُم دَمًا حِينَ نطَقْ

ليست هذه آلاما تحكم ظرفى الآن ولا هى عبث ألفاظ ، هى رثاء لنفسى ولأيامى التى كنت فيها فى نعاس عميق فى ليلى وأحلام يقظة فى نهارى ، ومن يرثى نفسه ولا ينتظر من راثٍ أن يرثيه ألا يكون بذلك قد عاد من سفره الطويل وراء السراب ... ؟ لا أدرى ، ولكنى أحاول ألاّ أبتعد عن المدفن ولا عن النعش وحامله .... ؟ فذاكرتى لم يكن لها جناح يحلق بها فى آفاق البعد الزمنى لتستقصى أخبار من مضى ثم تعود بها لأعتبر وأعرف قدرى وحجمى فى هذه الحياة التى نمر بها على عجل ثم نختفى فى الأفق البعيد ، هى مصدر آلامى وما كان هنا معنا فى هذه الحياة هو الذى نستطيع بالقيافة أن نزرع فى أرض الذاكرة أعظم العبر وأجلها لو كنا رواد عِبَرٍ ورواد حقيقة .

وتعبير كهذا لا أحمله إلى بيت إنسان مستريح فيه لا يود من يعكر عليه صفوه أو يطرق بيته يسائله ما بداخل البيت . ؟ هل فيه مصلح ... ؟ هل فيه وقفة مع الله ؟ هل فيه قلب يخفق بالحب ... ؟ هل فيه أطفال صغار ؟ أنت وربة بيتك عاكفان على تربيتهما تربية صالحة ... ؟ أم أنه بيت لا أذن له تستقبل سائلاً أو طارق ليل أو ضحى ... ؟

لو حمل إلىّ هذه الرسالة إنسان وقال لى تعال أقرؤك على ضوء رسائلك لأتعرف إليك من غير الكلمات والألفاظ ، فكل بها يستطيع أن يبنى جدراً سميكة عما فى بيته من فوضى خلطت الورق فى لعبة الذات ، ماذا سيكون جوابى ؟ هنا أشعر بثقله على أمانتى ولا جواب عندى غير أن أقول اللهم سترك !! ....



على مـــــراصــــد الفضــــاء

أبــويّ :

بالأمس زرت مقابر الموتى ، وعلى حافة المدفن جلست القرفصاء فى مكان يساوى مفحص قطاة ، ونازعتنى نفسى إلى مجاورتهم وعدم الانصراف عنهم ، ولكن صوتا حزيناً نادى من الأعماق ، إنهم هنا زوار مثلما أنت زائرلهم ، فغداً أو بعد غد يلتقى من زار ثم انصرف مع من هذه منازله ! !

والذين زاروا الفضاء وراحوا بعيداً فى تخيلاتهم عنه أتراهم ظنوا أنهم بذلك خلصوا بأنفسهم من أوجاع الأرض وآلامها ، .... ؟

لا أدرى بماذا حملتهم مطاياهم عليه ... ؟ أهى مطايا لم يلقحها جمل الراعى لتلد له راحلته ، أم أنها نعامة العصر ذهبت إلى هناك لتدفن رأسها فى الرمال هرباً من قناص لا تخطئ رميته .. ؟ لا سرية للألغاز فى سريرة العصر فنقدُر لها وننثر الودع الذهنى على مدفن رقبة النعامة لنقول لها : هذا المكان لا يحميك من أجل يطاردك حاولى أن تنفضى الجناح وتواصلى السير فى الآفاق البعيدة لترتادى للخائفات من النعام والجافلات

من الأشباح مأمناً لها . وعلى طريق طويلات الرقاب من النعام خافقات القلوب من الرعب والخوف يقف حفار القبور حاملا معه أكفانهن وحين يمر به من يسائله لماذا أنت واقف فى أدنى الطريق ، وطريدتك ذهبت بعيدا قد لا تعود إليك ، قد تجد هناك فى البعد الكونى مدفنا لا تعود إليك منه ، وهنا يسخر الأجل من طارح السؤال ويقول له : لحظات قليلة وسترى كل من ذهب عائداً إلى هنا رغم أنفه ورغم أكوام الحديد التى حملته إلى هناك .

فأسفار الإنسان مع الحياة والموت لم تكن حماقة من حماقات من ظن أن العبث وأن الصُّدَف هما اللذان يشكلان هذه الأسفار فى جبرية يحاول أن يتخلص منها ، وعلى مراصد الفضاء أقام الإنسان لنفسه فلسفة وأسفاراً أبعدته كل البعد عن نفسه ، وراح ينجذب إلى فضاء فارغ منه ذهنى الآن ، لا تستطيع أن تملك ولو صورة واحدة لتدلى بخاطرة عنها فى هذه الرسالة ولهذا ، وحتى لا أكون أحمق الرجال ، وأحمق القلم أتصاغر إلى أن أكون صفراً امحت من جانبه كل الأرقام التى لا أملك لها رصيداً فى عقلى وذهنى .

وما هذا التراجع عن البعيد جاء اختياراً ، ولكنه عجز الإنسان الذى لا حيل له ولا قوة بهما يستطيع أن يتمدد على فراشه فى سعة لا تنثنى بها الركب ولا يرهق ميزانيته الذاتية ثمن اللحاق الذى يغطيه ، وإذا

تراجعتُ فإلى أين أنا ذاهب لا مشقة عَلَيَّ فى العودة فالموطن الذى درجت عليه أول خطوة خطتها طفولتى ، هو التراب الذى تخطو عليه شيخوختى الآن ، وهو الذى لا أموات لى فى غيره ، فثقافتى لم تحملنى خارج أودية الصحراء هى جمل وحصان وهى خيمة وهى جبل وهى رمال وهى ظباء فلاة وهى شجرة ، وهى غدير وهى ربيع وخريف ، هى الفطرة هى الطبيعة فى غسق الليل أو ضحى النهار ، هى أعراف وتقاليد وأصالة ، هى ذكرياتنا مع الرسوم والأطلال مع منازل البدوى والبدوية ! !

أيعيبنى ذلك عند حضارة العصر ومدنيته ... ؟ لا أتساءل متلهفاً على الجواب سلباً أم إيجاباً ، هى لهم ولمن أخذته معها حاشية رديئة وذيل لها ، لا شعار لى فى عصر المزايدة بالشعارات غير «الله أكبر» فشعار يذلنى ويسلبنى حريتى مهين أمام «الله أكبر» أى فطرة هذه التى لا ترى عزتها وكرامتها فى الإيمان بمبدع هذا الكون ؟ أى واحد من البشر هذا الذى يدفن إنسانيته فى رمال فكرة العدم وفى بذاءتها تلق عليه الملاحظة فى طريقه إليها قدرا من الرصد لترى ما هو وماذا عنه فى مكانه منها فتعود الملاحظة لتسجل شهادتها عليه ، أنه فراغ كلما حركته رياح موسم الربيع صفرت داخله جنادب القيظ ، وهى فى مكانها من الصحراء لا تظهر إلا فى أيام ممحلة لا حياة فيها ولا أمل ، وحتى لا تخوننى الذاكرة مع ماضينا

فى الصحراء وقراءاتنا لها ، أرضا وسماءً ، ما نويت الرحيل عنها ، ولو كانت أيامى فيها كأيام عام الرمادة ، وهو عام كان له عُمَر أورثنا ذكرياته آباءٌ لنا أصابتهم فى قفار الصحراء مجاعة ظلت فى التاريخ قوة احتمال تحاورنا جيلاً وراء جيل وتعلمنا معنى الصبر والاحتمال ومعنى حب التراب ، لا أتصور أن عام الرمادة هو العام الذى لحقت بنا فيه مسؤولية الخليفة الثانى منا ، ولكن كل أعوامنا قبل آبار النفط قريبة من عام الرمادة ، ومع هذا لم تزحزحنا الظروف القاسية ولم تلهب شجرتنا بالحريق قسوة الحياة علينا ، بل صبرنا واحتملنا ولم نبق فى أعشاشنا زغب الحواصل ، بل آمنا بأن الحياة مسؤولية ، وأن الحركة دؤوب فى اتجاه الثراء الروحى ، هو الهدف وما سواه وسائل عيش ، إن وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإن فقدنا صبرنا صبر الجمال ، هذا هو ماضينا وماضى آبائنا وأجدادنا فى صحراء ، جرعة ماء تعز علينا فيها أياماً وراء أيام .

واليوم ماذا عنا وعنه ... ؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نقذف به فى كل بيت ، هذا هو السؤال الذى يجب أن نقذف به فى كل مدرسة وجامعة ، هذا هو السؤال الذى يجب أن نقذف به فى إعلامنا وفى منابر مساجدنا ونذود به عن أنفسنا عاديات الزمن وهى عاديات لا رائد لها غير الترف وغير ذوبان الإرادة والاحتمال . قد يتساءل من يتساءل لماذا تنطرح الخاطرة وراء الخاطرة على هذه الأوراق لكل واحدة منهن ملامح غير

ملامح أختها ، لماذا ومجرى الذهن الذى انحدرنا منه واحد ؟؟ أهذه قطرات خانتها أصابع اليد الذهنية فتناثرت فوق الورق على غير ميعاد مع مهندس الكلمات والألفاظ جاءت إلى أوراقه وهو غائب عنها فى رحلة عابر السبيل فيها لم يجد من يتصدق عليه بلحظة استراحة فى بيته ؟؟ لا أدرى ، ولكن ملامح الكلمات والألفاظ هى من ملامح الذهن وهى من بناته تشير إليه وإن تسربل بالغموض وهبط فى قاع النفس ! !

وهنا أطوى أوراقى على عجل وألوذ بكهف الجبل عن مياه السحب التى ساقتها على قلب الصحراء رياح لم تسكن حتى سكنت هذه المياه فى منازل عبلة وقيس وجميل ، وهى منازل ظلت شابة ما شاخت ولا لحق بها الهرم ، معالمها تتجدد فى الذهن على طريق الزمن ... ! !

أتُرابي من تراب هذا الكون ؟؟...

أبـويّ :

على تراب الأرض أو على صخور القمر ، علىَ نجمة الشعرى أو على ظهر زحل يضطجع الذهن يسائل الأحلام الزائرة له أترابي من تراب هذا الكون ... ؟ أبيني وبينه نسب ... ؟ أمنه أتيت وإليه أعود .... ؟ والذى ليس منه كيف قبل أن يسكن الطين ... ؟ أتساءل لا لأهدم بنياناً آمنت بكرامته مثلما آمنت بصيانته ، ولكن التساؤلات قلق لا يحمله إنسان على عقله وضميره فى سكون كسكون الحجر ألوذ به رمزاً للجمود ، وإن كنت أتصور أن كل شيء فى هذا الكون ناطق وله دور كلف به .....

وما رحل الإنسان إلى الفضاء وحرك قدمه من فوق تراب الأرض إلاّ لأن له نسبا وقرابة ذهب ليرتادهما فى منازلها بعد فراق طويل . لو لم يكن بين الإنسان ومجرات هذا الكون وشائج قربى لما فكر ولما استطاع أن يجد الطريق معبداً أمامه . ولكى نتجاوز برسالة الإنسان العظمى فى هذه الحياة رتابة المشى على قدميه أو على ذهنه فى خطى بطيئة مقيدة بقيود

الجهل ، وجب أن نعى الدور الذى من أجله قبل الإنسان أمانة العرض ، وهى أمانة خافت حملها كل الكائنات ، والذى لا يستطيع إيمانى بعظمة هذه الأمانة أن يقف بها فى حدود التعامل اليومى ، بين عمرو وزيد لا أكتفى بذلك وحده ، وآخذه على أنه الأمانة وليس غير ، فأقف أخادع نفسى وأتقبل الخداع من غيرى ، لا ثم لا ، فإلهى تَعَبَّدنى فى أن أسجد له فى سعة محاريب هذا الكون ، ولم يقص جناح عقلى أو فؤادى ويقعدنى فى حدود لا يتجاوزها بصرى ، والعبادة والتعبد للواحد الأحد هما فى منتهى الحرية المطلقة التى لا تضع حريتى فى يد النخاس ليساوم على ما فيها ، فالرق لله غير الرق للإنسان ، والرق لله عتق وتكريم لرقبة أسلمت عبوديتَها لمبدع هذا الكون ..... فإذا حملنى الخيال على جناحه وأسلمت له قيادى وذهب بى بعيداً فى آفاق هذا الكون أقرأ ما أمكننى أن أقرأه ، وأن أتفكر ما أمكننى التفكر على ضوء ما تلقيه الحركة الكونية على الحركة الذهنية وعلى قدر ما تستقبله هذه أشعر أننى قريب استقبل فى بيتى الذاتى السعادة والاستقرار النفسى والروحى ، فتوافه الحياة اليومية إذا ألهت الإنسان بقرع الجرس له ظل فى حلقه المربط اليومى تدور به فى فراغ ما حاول أن يملأه بإيمان لم يركب مصاعد ناطحات السحاب ، تلك الأحجار الميتة ، ولكنه يركب مصاعد عقله وذهنه إلى البعيد .

آخذ هذه الخاطرة وهذا النوع من المحاولة إلى أن أفتح كل نافذة فى ذاتى ، وأن أفتح الباب على مصراعيه لعل حبيسات عَقَلَهنّ الجهل فى ذهنى يتداعَيْن واحدة وراء أخرى ، يحملن لى معهن صوراً عظيمة وجميلة ما قبلت أن تساكن الخراب أو تزور جثة ميتة ، فهى فى هذا الكون الواسع لم تبرقع وجهَها الجميل ولم تعبس لنا ، هى فى منازلها خفرات فرشن مصلاهن فى حياء وخفر يتعبدن ليلَ نهارَ مَنْ منحهن هذه المنازل وأكرمهن بها .

ليت البدوى الذى هام بالجميلات فى كوكبنا هذا ، وتغنى وسفح عليهن عاطفته وحبه لم يقف عند هذه الحدود ، ليته تجاوزها وراح إلى هناك يسكب عاطفته وحبه ويزور الشعرى وأخواتها فى منازلها ، ليت المعلقات السبع ليت هذا أو ذاك ممن لم يقبل أن يضطجع فى بيت لا يدخله الضوء ولا تمشى داخله التساؤلات لم يقف عند باب هذا يمدحه وعند باب ذاك يهجوه ، ليت الكلمة أخذت حريتها وسمت فعبرت أعظم تعبير عن دور الإنسان وعن مسؤوليته ، ليتها لم تتسكع على تراب الأرض حافية أو منتعلة ، ليتها ركبت وهامت بليلى الكواكب وبثينة النجوم ، فعاشق لا يرى الجميلات فى مجراتها لا أتجاوز عليه اجتهاده ودوره ، ولكن ملامح المستقبل من واقع العصر يثير فى النفس جمالاً ثوت طويلاً فى مباركها ، فجاء هذا العصر يطلق عقالها واحداً

واحداً ، فهل من أمل أن يكون لنا جمال تركبها التساؤلات فكتابنا الكريم ألقى علينا مسؤولية التساؤل وأكرمنا بذلك .

فى ظلال النخلات ، أو فى ظلال سدرة الوادى نضطجع يوم كنا أطفالا من شدة التعب ، فعلينا نحن أطفال الحى من لا نحتمل أن نحرث الزرع ونسقيه ونؤبِّر النخلات ونرويها ، تقع مراقبة الطير وذوده عن حبات السنابل أو عن ثمرات النخيل ، كل منا فى يده مقلاعه يصيح ويصرخ على الطيرا ترك لى تعبى فأمى جائعة وأبى انحنى ظهره على محراثه ، ولكن الطير ذا الجناح يدخل المعركة معنا نحن الأطفال دون مبالاة دون خوف ودون تراجع ، يغدو من منازله قبل أن نغدو ، يبكر فى دخول المعركة ويسبقنا إليها ، ففى ذكرياتى عن ذاك اليوم البعيد معه تراءت لى المسؤولية وتراءت لى الهداية فى هذه الذكرى مع الطير ، كيف يسير مع فطرته وطبيعته فى أمانة دقيقة تحرسها هذه الفطرة وهذه الهداية ، يأتى خالية حوصلته وتعود ممتلئة وفى أفواه فراخه الصغار التى فى أعشاشها يفرغ ما فى هذه الحوصلة ، وقد يهجع معهم فى ليلته جائعاً . وهكذا علمتنا الحياة وعلمنا فيها الطائر الصغير مثلما علمتنا فيها ردود الفعل وكل من قابلناه اليوم فى ذكرياتنا طيراً أو إنسانًا ، حيواناً أليفا أو متوحشا ، حجرا صامتا أو نجما باسما بوجه صبوح ما حجبته سحابة يبسم للأرض العطشى فى مقدمتها برق غير خلب .

فى هذه الرسائل أبنى من الذكريات ألفاظاً لا أتصور أنها حاملة معها شيئاً له قيمة ، وما لم يكن له قيمة فى سوق العصر ألا نعلقه على وتد من أوتاد البيت ونبقيه مع التركة ، لعل وارثاً معدته غير مترفة وذوقه ميراث له من ذوقنا ، نحن جيل الأمس يتذوقه ، وإن كانت روائحه من الصحراء ومن البيئة التى يهرب عنها العصر هروب النعامة مشمراً عن ساقية فى عدو يحار العقل فيه ، هل سيكون منه وسيلة جليلة إلى الإيمان بالله فإذا كان كذلك وإذا كانت الرؤية مبصرة للحقيقة ، فما أجمل الرحلة وما أجمل الوسيلة وما أعظم الهدف ، وإذا لم تكن كذلك وصار إلى لهاث كلهاث كلب الصيد يعود جائعاً مثلما ذهب يطارد صيدة فاتته ولم يتذوق طعمها ، فرثاء الزمن السرمدى له مِنْ كل من وضع بصمته على طريق الرحلة لإنسان هذا العصر... ! !

وسوق رواحلى عاريات مناكبهن من الوبر الذى يدفئهن على درب أجهله كل الجهل ، ألا أخاف من غيلان الطريق فى عصر تغولت فيه الغيلان ولا أدرى أهن رموز كريهة أم أنهن خرافة ؟ لكنهن فى ذهنى من قصص الجدات ، حائر على أول الطريق أنتظر من يشير إلىّ من داخل نفسى أن تحرك إلى الأمام أو تراجع إلى الوراء ، ولكن ما كل مشير بمؤتمن فى مشورته ، ولا كل مشير إذا كان مؤتمنا بواعٍ لدور المشورة ! !

وعلى حرفية الحذر من خداع النفس وحيلها تتنازعنى ذكرياتى مع

الأيام التى مضت والسنين ، وهو نزاع لا أثق بقدرتى على مقاضاته والحكم بينه فى طرح الصور على جدار الشيخوخة من جدار الشباب .
وهنا سأضرب رقاب مطاياى لأنيخها إلى أن ينبلج الصباح وينجلى الظلام ، وعندها أقول للنفس سيرى وأرخى للجمل رسنه ....



لامَنــازلَ للـهـمـوم فى نفـــسى

أبــوىّ :

أحنُّ إلى ذلك اليوم الذى ما أخذنى فيه الخيال إلى أبعد من منازل العشيرة أحنُّ إلى ذلك اليوم الذى ما قرأت فيه تاريخاً لم تلحق به الظنون أحنُّ ولا أنحاز بهذا الحنين إلى عصبية أو إلى شريحتى من العشيرة البشرية ، لا أتظاهر بتظاهر هذا العصر على ماضٍ لا ندرى أهو آلافٌ أم ملايين من السنين ؟ أتحامل على شيخوختى وأتسلح وراء الحقيقة وأتساءل أهى عند من استنطق الحديد وبنى سحب الفضاء وجدع أنف المسافات ؟ وتساؤلى هذا عثرة فى طريق القلم لا يجبر كسر كل سؤال عثر غير أن يصعد مئذنة مسجده داخل نفسه ومن خارجها ومن فوقها يقول : الله أكبر... ! !

والصعود فيما بين مركبة الفضاء وما بين مئذنة العابد ومحرابه لا يحار إنسان فطرته سليمة فى المفاضلة بينهما ، ما يصعد من التراب هو تراب وسيعود إلى التراب ، وإن كان جبلا من الحديد أو سحباً منه ، أما ما يصعد من محراب العابد ومئذنته فلا قدرة لإنسان مثلى أن يتجاوز قدره

ويعطيه لوناً أو صفة أو مسافة زمنية ، هذا ليس من حقي ولا من حق أحد مثلي ، ولكن الرحلة من المحراب ومن المئذنة على جناح الوجدان ، هي الرحلة الموصلة .

يوم كنت مع جمالي وقطيعي أرحل من مكان إلى آخر في قلب صحراء امرئ القيس والمجنون وفارس بني عبس والطائي لم يكن للهموم منازل في نفسي ولا قدم حائرة .

أخيل السحب في أيامها ودورتها مع السنة ، وإذا هي حطت مياهها في جناح من أجنحة الصحراء طويت خيامي وبنيتها هناك ، وعلى جناح الغدير أنظم قصائدي في راعية الغنم أو في جمال الربيع ، وإذا اعترضتني ظباء الفلاة أخذت بندقيتي وأطلقت رميتي على قائدة القطيع . فإذا أخطأتها الرمية هتفت نزيلة بيتي وصفقت فرحة بذلك لأنها شبيهتها تضن عليها بالموت . ويوم أعود لها طائشًا سهمي تُفَدِّي بنفسها من قال : ـ

أَفْدِي ظِباءَ فَلاةٍ ما عَرَفْنَ بِها
مَضْغَ الكَلامِ ولا صَبْغَ الحَواجِيبِ

تُفَدّي وتقول لي : أما تعرف أن هذه أختي ونزيلة الصحراء مثلما أنا نزيلتها ، أقلبك غليظ ؟ لماذا هذا العدوان على حرية من هرب في الصحراء بهذه الحرية ؟ لماذا تخاتله ؟ لماذا تطارده ؟ إلى قوس قزح في ذيل السحب رفعتُ بَصري وقلت لها أهذه الجميل أم هي ... ؟ عقصت

ذوائب شعرها ثم قالت : ليس أجمل منى وإن كان قوس قزح ، تعاطفت فى هذه اللحظة ذكرياتى عن الصحراء وإن كن متخاصمات فى أيامنا معها ، تعاطفت لأن مفاجأة رهيبة ظهرت فى سمائنا على غير ميعاد وعلى غير من بشر بها أو قال لها إنها آتية ، جاءت تحمل معها آفاتها متظاهرة بأنها حققت للإنسان أحلامه وفارقت زمانه ومكانه ، وطوته فى سجله ، وقالت له وداعاً تحول من فوق ظهر جملك وحصانك فلا تجاور بيننا وبينك اترك لى الحاضر والمستقبل فهو لم يعد لك ، حصل هذا ونحن لا ندرى ماذا نفعل ... ؟ أنلوذ بشعاف الجبال أم نضع الجمر فى أيدينا ونحتمل ... ؟ صراع ما عرفه الإنسان من يوم وجد لأن المفاجأة رهيبة لم تقتحم عليه حياته ، ودّع الحياة وهو آمن وودعته الحياة وهى تسير فى طريقها دون أن تقول له : إن شيئاً آتياً منتظرٌ مجيئه على عجل ! !

لا أكتب هذه الرسائل من شعاف الجبال ولا ألوذ بكهوف النفس عن احتمال هذه المفأجاة التى لا أدرى أهى حضارة ... ؟ أهى مدنية .... ؟ أم هى ثورة علمية ... ؟ لا أدرى أهى عصارة الزمن وعرقه وفضلات جسده ملأ بها كأس الحياة وقال لنا اشربوا هذه الكأس ، وإن كانت علقما ؟ كل الذى أرصده داخل هذه الكأس لم يثر إحساسا بالجمال الروحى ولم أر له مئذنة تنادى بالأمان ، تنادى بالسلام ، لم أر له مئذنة تقول : حى على الفلاح ، حى على الأخلاق ، كل الذى

أراه ويرصده إحساسي وشعوري وأذرف من أجله دموعي هو الرعب ، هو قتل الابن لأمه وقتل الأخ لأخيه والجار لجاره ، هو كف الفناء يحمل عليه كوكبنا الجميل الذى فيه الأنبياء والرسل وفيه المفكرون والمصلحون وفيه الإنسان البسيط وفيه أيضا مزرعة الحب والجمال ، واأسفاه على خيمتى ومزرعتى وعلى جملى وحصانى وعلى أيامى الأولى واأسفاه ! !

أأقول ما قاله العربي القديم :

أما فى هذه الدُنيا كريمٌ
تزولُ به عن القلبِ الهمومُ
أما فىِ هذه الدُنيا مكانٌ
يُسَرُّ بِه الجارُ المُقيمُ

أأقول هذا ؟ وإذا قلته ألهذا العصر أذن مصغية ؟ ألهذا العصر قلب لم يتحجر ... ؟ لا أمنحه ثقتى واطمئنانى وإن رفع أعلام السلام على سارية هيئة الأمم ، فبجانبها الوحش المفترس مصدر الخطر والرعب .

لا أذرف الدمع ساخنًا على جيبي لأنه جيب خال من الرصيد ، لا أذرف الدمع لأن معدتى خاوية ولا أذرفه لأنى ابن العشرين يخشى ألا تمكنه الأخطار من أن يرتع فى مائدة هذه الحضارة وأن يعب إلى أن يرتوى من ملذاتها التى هى حاشيتها وهى التى جاءت تبشر بها أبداً لا هذا

ولا ذاك ، أنا بدوى أعد خطواتى واحدة واحدة ، وأكثر هذه الخطى خلفته ورائى ، ما معى الآن فى آخر الرحلة يشير إلى أنه لم يبق معك غير خطوات قصيرة ونَفَس شاخ ، قريباً ينطفئ ويقف الخطو ، وما نواحى أو بكائى أو تجريحى فى أكثر الحالات لبدن الرذيلة فى حاشية هذه المفاجأة التى أحار فى تسميتها إلا حب فى أن يسعد الإنسان بكرم الله عليه وأن يكون هذا التحول الرهيب فى لون الحياة وثورتها من مبركها من الأرض إلى الفضاء مصدر إعزاز له وإكرام وإسعاد .

لا يعرف الإنسان كيف يعاشر مستقبله مع الحياة وثورتها من منازلها الأولى مودعة له وداعاً لا رجعة معه ، أنقبل بهذا التحول ونركب مع الراكبين على قتها أم نقول لها وداعاً لا طاقة لنا بمفارقة مواريثنا وما أودعه الماضى البعيد والقريب فينا من أسلوب حياة ومن تقاليد ومفاهيم ؟ لا أملك لنفسى مرونة الجواب وأثنيه طية وراء طية ليتكيف مع الحياة التى هبت رياحها فى سرعة لا أجد لها فى قدم الماضى أو جناحه سابقة أصفها به ... ؟ شيء حصل أمام راكب الجمل وساكن الخيمة وكوخ المزرعة البسيط فدب إلى نفسه يجادلها بهذا النوع من السمر قبل أن يودع الحياة ويقول : خذى طريقك مع قدر الإنسان وأسرار هذا الكون ، خذيه وإن تساءلتْ أأنت الآن فى طريق الشيخوخة مثلى أم أنك بكر لم يستطع عصر من العصور الخوالى أن يكتشف هذه الحقيقة فجاء

هذا العصر يَزُفُّكِ عروساً على قمم الجبال الكونية وعلى هامة الإنسان التى هى حلبة الصراع ، وهى التى لامست بهامتها أبعاد النجوم فى ذاتها أو ما هو خارج هذه الذات من قوافل كونية تسبح فى الفضاء ولا ندرى متى يصيبها الغرق ؟؟

ولمن يقرأ هذه الرسائل التى أكثر ما فيها متخشب عوده وغير طرى يقبل بالتكيف مع أى رياح تهب عليه من أى أفق من آفاق الحياة ، أنصحه ألا يستوحش من وحشتى فى قلب الصحراء وفى قلب السنين الطويلة ، أنصحه أن يقبل على الحياة وما هى آتية به من المفاجآت العلمية فى ذاته أو فيما هو خارج عن هذه الذات فى كون واسع أذن الله للإنسان فيه أن يطارد بندقية ذهنه أسراراً جاء الأمر للإنسان أن يستنطقها ، والخيرة فيما اختاره الله ...

كيف لى أن ألحق بسراة الليـل ... !

أبـويّ :

فى عالم الأسفار البعيدة على مطايا الذهن ، تساءلت ، كيف بى والرحيل معهم ؟ ظمأ عندى لا يرتوى وجوع لا يشبع ، ومن يجهل الطريق يتراءى له أنها نزهة ربيع فى قفر لم يزره واحد قبله . ظننت ، وكثير من الظنون كواذب أن سيرى على جادة الطريق البعيد مثل سيرى على جادة قريتى إلى قرية جارى ، ويوم رحلت مطيتى على نية السفر البعيد ثم نخستها بعرقوب القدم وقلت لها سيرى إلى حيث يسير الرواد فليس لذهن رحم يجود بأنجب الأبناء ، والآخر عقيم لا أبناء له ، نعم لا أخضع لفلسفة (السوبرمان) والتمايز ولا أقبل بها فى عدل الله . مشيت ولكن سيرى لم يكن سيرا دؤوباً فى منعطفات الوادى الذى أسير عليه وأجد الرياح فيه قد ذرت وجمّعت من الرمال مضجعا لينا أو بالأصح مترفا أضطجعت عليه وطال غطيطى ونومى ، والآخرون يحثون المسير ، وفى عصر قاربت فيه شمس النهار منامها ، استيقظت متثائبا ومتسائلا أهذا يومى الذى اضطجعت فى ليلته كيف لى أن ألحق بسُراة الليل بالمدلجين فى

نهاره وإن كانت حرارة القيظ تشوى أبدانهم ؟ حاولت أن ألحق بالقافلة فأجهدت مطيتى وضربت رقبتها بالسوط وقلت لها : لقد ذهبوا بعيداً ألحقينى بهم ! ! وكلما أوجعتها بضربات السوط تسلل من أعماق النفس صوت يحمل سوطا ولا سوطى الذى أضرب به ناقتى فضربنى على هامتى حتى أوجع . ثم قال إلى أين أنت ذاهب ؟ قالها على لسان الأحداث والظروف .

ومنعطفات الوادى الذى مشيت عليه عشرات السنين لم أقطع من مسافاته أكثر من أشبار بالنسبة لما قطعه غيرى من عالم المسافرين الذين لا تثنيهم عن مشقة الأسفار ليونة الرمال التى تبنيها الرياح بين الصخور ليضطجع عليها كسول يحلم بأحلام الرجال الكبار ، وهو لم يكن فى مضاجعهم التى يحلمون عليها تكاثرت فى صحرائى الذاتية كواسر الطير ولا أدرى أعندها حاسة الشم ، وأنها شمت فىّ رائحة جثة تمشى على قدميها والطيور الكاسرة ماأكثر ماافترست الجثث وإن كانت تسير على أقدامها .... وعندئذ أصابنى الرعب والهلع فأنخت مطيتى الذهنية على أكثر الطرق وعورة وتعقيدات ، وقلت لها : لن تثورى من مبركك هذا حتى أخرج بدنك وأثخنه بالطعنات الحادة ، موت بيدى لا بيد عمرو ـ موت بيدى ولا أن تفترسى الطيور الكاسرة وأن ترمينى فضلات لأخسّ الطيور ! !

تظاهرت فى سمائى صور ناعسة الجفن وأخرى يقظته ، فحاولتُ بعد مشيب على مفرقى أن أستضيف كل صورة تسامرنى على موقد النار ، فما فات على ولم ألحق به وذهب بعيداً ولا أملك الاعتراض عليه ، وأستحى أن أقذفه بالحجر لأنه نشط خلفتنى عنه حليلة ذهن ما وقفت أمام مرآتها وتساءلت عن مرايا من علقوها على صخور القمر وعلى حيطان المعرفة التى ليست كحيطان مرآة حليلة الذهن عندى أو عند من يماثلنى . حيطان يلاحقها خطر التهدم على المرآة وصاحبتها .

ومثلى يوم يكثر اللوم لنفسه ويعنف هذه النفس أهو بهذا يعترض لائمته قبل أن توقعه فى الفخ أختها الأمارة بالسوء ؟ هذا ما أحاول أن أتدرب عليه وإن كان قد فات علىّ الشيء الكثير...........

ليس للحياة منازل لا تقبل أن يزورها هذا لأنها منازل لذاك ، ليس للحياة أنف ، جبرية على السفح أن يقبله ويعطيه ما ليس له ، فكرامة الإنسان هى فى عتقه من الرق إلا للواحد الأحد ، وهنا تتعالى بالإنسان إلى مالا نهاية له عظمة رسالته على هذه الأرض . أشعر داخل نفسى بما لا أستطيع أن أدنس قدسيته بالألفاظ التى إذا نطقت تأتى باردة وباهتة أمام المصدر الذى جاءت منه وما أكثر ما حملها قلمى أو ثرثرتى على هذا الطريق أو ذاك ، ذكريات أعود إليها كلما تسربل الليل وعسعس على واد بنيت فيه خيمتى تجالسنى وحيداً ، هى حاشيتى فى هذه الوحدة وهى

جارى وهى رفيق صباى وهى تجاوز يومى على غدى ، هى أيام مضت وما هو منتظر أو ما هو باق لا ألاحيه ولا أقتحم عليه عزلته وإن ساقتنى إليه ظروف العصر بالسوط الموجع ..

وما تبنيه الألفاظ فى مثل هذه الرسالة أو سواها من خيالات أو ذكريات جاءت تزور الشيخوخة بعد فراق طويل ، ما أكثر ما دمعت عينها وقبلت شيب مفرقى ! ! وقالت لو استطلعنا يومك هذا يوم كنا شابات لما أوجعْنا قدمَك الذهنيةَ اليوم ، ولما تركناه حجراً على أكتافك تكابد حمله لا تدرى أن لكل راقد مهما طال رقاده، يقظة وصحوة ، وهنا تختلف الخطى بين من أيقظته الأحداث مبكراً ومن لم يستيقظ إلا بعد فوات الأوان ! ! بكين وهن يقبلن مفرقى ويعتذرن ويجادلن بعضهن بعضا ، تلوم الأخت أختها .

هذه هى الحياة وهذا عقاب من نعس طويلا وأغمض عينيه عن كل جميل معه على هذا الكوكب أو بعيدا عنه فى آفاق الكون . ساءلتنى واحدة من هذه الذكريات ، وقالت : لو عاد إليك شبابك ماذا ستفعل ؟ أتظن أن تجربتك مع الحياة حصان أسرجته يد وملكتك ظهره لا خوف عليك من السقوط ؟ تبعثر الجواب فى صحراء النفس وتعثر حصانه لأن الحياة ما وضعت لحصانها سرجا ولا قبض على لجامه فارس لم يجمح به حصانه لأن اللجام فى قبضة يد منيعة من صروف الحياة ..

ما حصل هذا ولو حصل لما كان للحرية الاختيار فى الطريق الذى تمشى عليه ، لو عاد إلى شبابى وهى أمنيات شائخة لقبلت بتحديات العصر وصرت معها وجها لوجه لأسمح لها أن تقول لى الحق بى فكانك فى آخر القافلة ! ! وعلى أى طريق يكون هذا التحدى ؟ على طريق المعرفة حيثما هى وحيثما كانت ، فليس فى بدن الكون وأسراره شىء محرم علىّ فالذى حُرّم فى كتابى العزيز هو معى فى هذه الأرض وليس هناك فى المكان البعيد ، ولعلى فى هذه الأمنيات التى أقبل بها التحدى لو كنت شابا لا أتجاوز ما هو لى هبة من مبدع هذا الكون .... أما نراه الآن فى وجه الزمان فى هذا العصر تجاعيدَ شيخوخة أم شبابا ملّ الحياة فى الزمن السرمدى أن يُماشى مَنْ لم يقبل أن يسرع الخطى ؟ فَدَرَجَ على مدرج الحازمين حقائبهم للرحلة المخاطرة ، فحملتهم إلى منازل جيران لنا أعدوا الضيافة من قديم ، فلم يزرهم ضيف واحد قَبْل هذا العصر. أطرح السؤال وقدماى غارقتان فى الرمال . ولأن السؤال ، أى سؤال ، سهل على الإنسان أن يقبض عليه ويطرحه فى الطريق العام ، ولكن ليس من السهل الجواب عنه فحاشية الأزمنة الخالية فى جيل من الأجيال ممن طرح السؤال أو لم يطرحه قليلا ما أتى بالجواب الذى نقرؤه ولا نختلف عليه ، وقلمى الذى لم أحقنه من نهر الفرات أو نهر دجلة ، أو من مياه السحب أعتذر عنه إذا جاء فى هذه الرسائل بماء غير قراح ، ما أكثر الأقلام التى

أغرقت عذوبة الذهن وصفاء العقل فى مياه كدرة ومالحة ، ومياه دجلة أو مياه الفرات ومياه النيل وهى مياهنا وقسمتنا على هذه الأرض ماذا عنها وعن النخلات والتربة التى كانت تطارحها الغزل وتمازحها فى أوقات فيها المزاح مباح لا يلحقه غضب أو انفعال ؟ أتساءل من صحراء العرب أهى اليوم جف ضرعها مثلما جف كل شىء لم يجد من يصونه ويروى عطشه ؟ ......

والسؤال هل هو محرم أو مباحٍ لمن تثير الأحداث فى خاطره أخطر التساؤلات وأخطر الأجوبة عنها لا ينقض بنياناً بناه العقل والعدل وزكته الحقيقة إلا إنسان مجرم وخائن للأمانة ! !

هل بالكذب زوروا علينا التاريخ ؟ وهل بالجريمة ظنوا أن كل شىء فى هذا الكون ممكن أن يصيبه الخلل وتسلمه لهم الجريمة دون عقاب ؟ فمياهنا أو نخلاتنا أو تربتنا أو طاقة النفط التى هى دماؤنا وهى عَرَقنا وهى كرامتنا تُراجع اليوم فى إنسانيتها ميزان العدل ، وكيف هى مع التاريخ وكيف هو معها ، ومن راجع نفسه لا لينكفىء عليها ولكن ليصحح مساره فى طريق لا تسايره عليه جريمة لابد أن يصل ، فإلى من ظن أن يومه حسم غده وأمسه طواه النسيان فى ذهن المظلومين أقول لهم على لسان يوم آت وفتية آمنوا بحقهم : إلى اللقاء ...... ! !

ما أحد استطاع أن يقول علمته ...!

أبـويّ :

بالأمس ألقى على خاطرى عربى فجيعته فيمن أحبه وحمله فى مشاعره وقلبه وروحه حباً ما رابه فيه وسواس ولا سوء ظن .... ولا زارته فى أحلامه صورة تعكر عليه وشائج قرباه . ومع الزمن البعيد أرسل إلينا وفاءه وغدر الظنون الخاطئة به وتحولها فى نفس الإنسان المقابل إلى يقين هو معى الآن يقول : -

أريد حياته ويريد قتلى

عذيرك من خليلك من مراد

هذا العربى ما أكثر من عبر عنه جيلا وراء جيل وما أكثر من خطه على جدار نفسه وحمله معه أينما اتجه يقاضى به كل وسواس يثير الغضب والحقد على هذه النفس الكريمة والنفس الآمرة بالسوء . ونحن عرب اليوم فى منازلنا المختلفة من كان منا على قمة الجبل أو على جنباته أو فى سفحه لا أحد منا يستطيع أن يقول فى يأس قاتل .

مضى الذين يعاش فى أكنافهم

وبقى الـذيـن حياتهم لا تنفع

ومثله لا يستطيع أن يقول هذا فى عصر لا يستقبل فى مساره إنسانا لايحمل فى حقيبته رصيده من التاريخ الحضارى فيوم قال أبو الطيب :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه على الهرم

لم تكن هذه الحالة عنده فيما أتصور ، مدفناً حفره ثم ململم فيه بقية من زمن توهم أنه أصابه الهرم فواراه بمثل هذه الفلسفة أو هذه النظرة الأليمة والموجعة لعقل الشاعر وقلبه آنذاك .

فآلام الرجال إذا عبروا عنها بمثل هذه الأوجاع لا يعنون أن ينتحر الزمان تحت أقدام أوجاعهم ، ولكنهم يريدون له أن يجدد شبابه ويلوم الماشين معه فى الطريق الطويل لتنشط أقدام عقولهم وأفكارهم ولا يصيبها الإعياء فى أثناء الطريق فيوم قال أبو الطيب : ـ

وما الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِندَهُ

حَياةٌ وأَنْ يُشتاقَ فيه إلى النَسْلِ

تتحامل على أوجاعها عنده بنات فكره وتسائله كما أتصور : أأنت تعنينا وتريد لنا العقم فى ذهنك وفى ذهن كل من أراد أن ينجب عقله وفكره

نسلا لم تلده أنثى من سفاح ، ولم تلده ربه بيت ساكنة فى عقل وذهن خامل لا يلد غير الخمول وغير الجنين المشوه . هذا ما أتصوره وأميل إليه وإن أخذته السطحية عند آخرين فظنوها تعنى ربات بيوتنا ، وعلى عاتق الحياة الشاب ركب الزمن واستوى عليه فى يوم نجهله ولا أحد استطاع أن يقول علمتُه . وقافلة الحياة سائرة ونحن اليوم معها سائرون ، وغدا تقول لنا هذا مكانكم اتركوه لغيركم وهكذا ... وآهاتنا ومسراتنا نحن البشر تصوغها ظروف وتنحتها من عظامنا آلام موجعة .

من ضرب منا خيامه فى الربيع وبجانبه الغدير منبطح جاء خطوه مع الحياة فرحا وشابا وباسما ، وإن صاف الصيف وجاء الخريف سخطنا وتعالى الصراخ فى ألفاظ منتظمة أو غير منتظمة وهكذا .... ومشكلتنا فى ذهن هذا أو ذاك لا وجه له متفق عليه ، أسراب من قبائل الطيور لكل قبيلة منها لون وجناح ومخلب ، ولكل منها جيل قوى وآخر ضعيف ، وهكذا نحن قبائل البشر مع الحياة ، ولكن متى نلتقى على حالة لا جناح قوى فيها يستطيع أن يهرب عن ذى الجناح الضعيف ، ولا ذو مخلب يستطيع أن يفترس طائراً صغيراً ، كلنا يلتقى فى بيت الضيافة زواراً .

لو نطقت الحياة اليوم لقالت : لقد أذن لى أن أدخل مسارا جديدا ، فمن لم يدركْ هذه الحقيقة ويع التحول الرهيب فلينتبهْ ! وهو

تحول سيكون له عجلة ركبها زمن وَقَّتَ لها فحركت القدم والجناح ولمن يرتاب فى هذه الحقيقة أو هذا الواقع أن يعاود حساباته قبل أن تذهب القافلة عنه بعيدا ويبقى قعيد البيت مع حليلته وربة أطفاله يذرفون الدمع ويرقعون ملابسهم البالية .

لشاعر الفضاء وناظم قافيته اليوم فى سمع الزمن أصداء لا يبتلعها الجبل وتموت فيه ، قد تكون رائدة لأعماقه وآتية إليه القافية التى ردد صداها جبل هنا أو هناك . ولشاعر الإنسان وملقى قصائده فى أعماقه دوىّ قد يلحق بما هو مجهول فى هذا العمق ، قد يعود من رحلته فى فلك الإنسان ومعه أخبار تقول استجبت لأمر الكريم الذى قال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فاستجابت لى هذه النفس وسمحت لى أن أرتاد منازل عظيمة جثوت فيها على ركبتى ، وعفرت جبهتى ، وأذللت كبريائى لبارىء هذه النفس وخالقها !

أبـويّ :

اليوم ، وإنسان هذا العصر يقف على عتبة السلم الأولى ، السلم الذى مده عقله وذهنه فى أفق الفضاء والكون ، ظللنا نرقب فى ذهول عظمة المفاجأة ، فكان أكثر ما فى هذا الكون ومنه كوكبنا متلفعاً بالغموض والرموز والأسرار التى وقف الإنسان منها حائرا فى الدهور السحيقة . وقد أدار العقل والفكر عند الإنسان عجلة الحركة وأمرها أن تمشى لتكشف المجهول وتكشف ما أذن لها به أن تكشفه من أسرار ، وعلى هذا المدرج ماذا نرى اليوم وماذا يمكن أن يراه جيل الغد ؟ لا أدرى . ولكن ما رأيناه بالعيون « المفتحة » نزع الرسن وعفّى ظهور المطايا الذهنية من القيود وأطلق لها الحرية لتمارس التجربة الرهيبة ومن قال إن لى تجربة ذاتية ، ومن ظن أنه قيادة إنسانية وهو بليد لم ينبت فى ذهنه ريشة واحدة يطلقها من عقالها عقل نوى الرحيل مع الراحلين على أكوار المطايا الوجدانية والعقلية . فلنرم بتجربته وهذيانه فى وجهه ونرقب التجربة التى عابت الثرثارين

وكسرت أنف كبريائهم ، لا أتجاوز بذلك حقائقَ الإيمانُ بها يخضع كل كبرياء لها ، وإن كان أنف هذه الحضارة الجبارة ! ! الحقيقة الأولى : التى ذلت وتذل لها كل الأنوف طوعا أو كرها هى حقيقة التوحيد الحقيقة الثانية : إن مامعنا اليوم أو ما هو منتظر مهما كان ومهما ذهب بعيداً وعلا عن تصورات العلماء نرده إلى خالق هذا الكون ويزيدنا إيمانا على إيمان بعظمته ، أخلص بإيمانى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وسأحاول أن أكسر جناح الخيال وأن أكون طفيليا يمشى وراء روائح المائدة العلمية التى أدخلها الإنسان إلى معمله وصارت روائحها من مطبخه العقلى والفكرى تملأ الفضاء وتغوص فى أعماق البحار وأعماق اليابسة وإذا كان لى من هذا التطفل مع هذه الأوراق الظامئة إلى الحقيقة قدر لم يأخذنى إلى أعماق الصورة التى تتراءى لنا على جدار العلم كم ساءلت نفسى ماذا رأيت ؟ وعماذا أكتب ؟ كيف أصف ؟ كيف أعبر؟ فيأتينى الجواب حائراً مثل السؤال ، وهنا يقبض على رقبة وعيي كابوس يغطه فى ظلام ملىء بالأحلام المزعجة فأصرخ كالطفل الذى أفزعته الأشباح ، فإذا تحول هذا الصراخ إلى ألفاظ على أوراقى هذه لا أستحى أن يسمع صراخى جيران البيت لعلهم يهدئون روعى ويؤنسون وحشتى ولكن بيتاً ذاتياً لاتجاوره فيه آدمية أكرمها الله ماذا عنه ؟ هنا يتداعى السؤال الرهيب

متسائلا فى غضب عن هذه الآدمية عندى أو عند سواى ممن طينتهم متثلمة ومتهدمة مثل طينتى فلا أتصور أن آدمية أكرمها الله تساكن الخراب أبداً ، فإذا حاولت أن أزحزح من خرائب الذات حجراً واحداً من طريقى إلى أن أرى ما هو خارج عالمى الذاتى وأصغى ِ إلى أصداء المفاجآت العلمية التى نسمعها مثلما تسمع قطعاننا صوت الراعى الذى تردده الجبال تخاذلت بى جهالتى وردتنى إلى قطيع يسمع الصدى ولا يعلق به عنه أكثر من أنه صدى رددته الجبال .

ونوبة الجنون الحادة عبّر عنها بركان حمل على لهبه أضخم الجبال أو عبر عنه عقل هدم طوفانه كل السدود ومعوقات الجنون داخل الذات ، بأى شىء ينفى الإنسان ذلك ؟

فروما التى بناها وأراد لها أن تكون مدينة لحضارة لا مجانين فيها ماذا عنها والمجنون الذى فاجأها بالحريق ؟ أهذه قصته وحده ؟ أم ماذا ؟ فعصرنا هذا قد يكون أكثر العصور جنونا ومجانين ، فَلَهَبُ الحريق الذى أشعله مشعل الحريق فى روما لم يعد ذلك الثقاب ولكنه اليوم بيد المجانين الانفعاليين ، حريق يحرق روما الإنسان أجمع فى كوكبه الذى وهبه الله له . والجنون ـ كما يقول المثل ـ فنون . وفارق كبير بين مجنون ومجنون ، فهذا القلم الذى بيدى الآن عليه ملامح الجنون وإن تظاهر بغير ذلك ، فأبو الطيب يوم قال : ـ

كدعواكِ كل يدّعى صِحة العقلِ

ومَنْذا الذى يَدْرى بما فيهِ من جهلِ

ألا يكون قد لامس بذلك حقيقة فى الإنسان قد لايخلو منها إلا القلة النادرة والموهوبون من الله فضيلة الخلق والعلم . وهنا يقف السؤال على صخرة الوادى حائراً كسير النفس آخذه عجزه إلى أعماق إنسانيته ، وإن صح له من هذه الإنسانية ميراث آلاف السنين أو ملايينها وإن كان واقفا على صخرة الوادى ، ما العلم؟ ما الأخلاق؟ تحت منبر من نجلس لنتعلم؟ وأمام بيت من ننيخ مطايانا ليعلمنا مكارم الأخلاق فى عصر مسرع لايريد أن يلحق به سؤال؟ لا أدرى أأنا مع الشيخوخة أدخل فى غضبها على الشباب الذى خذلها أن تتساءل مبكرة فى جدل عقيم لامعنى له غير شيخوخة برمت بالتحول الذى ألبس الحياة لباسا لم يكن من ملابس الأزمنة البعيدة ولم تنسجه لنا وتغزله قيم ومثل عليا ! ! ما أكبر خسارة إنسان يدير لها ظهره ويعدو حافياً وراء مراكب الفضاء ! !

هذه الخاطرة فى هذه الرسالة وما جاء مثلها من خواطر قد يقع التناقض والانشطار بينها ، والعلة عندى فى ذلك أنى لا أمشى على طريق عبده لى معلم أمرنى أن أقتفى أثره ولا أتجاوز الطريق الذى حطنى عليه ، فالحياة هى التى علمتنا ـ نحن الأميين ـ وهى التى

رمت الحجر الثقيل فى أعماقنا فظل يدوى ونحن نصغى إلى دويه داخل النفس ، فنسجل فى دفاترنا وفى أحلامنا مانقوى على تسجيله ، وإن كان رذاذاً ضحلا لايروى ظمأ طفل فى سنته ، فلو رمى الإنسان أقلامه وعطل آدميته عن أن تركب مطايا التساؤلات وتدير الحركة مع ماهو محسوس خارج النفس أو مظنون يشكله الخيال ، وجلس القرفصاء تحت منبر هذا أو ذاك ليفكر له ويشكله ، حتى وإن كان أفلاطون أو سقراط ، ماذا عنه ؟ ألا يكون محسوباً على القطيع أو على حجر الصحراء ؟؟ فإذا تجاوزت كل طريق أرتاب فيها وعدت إلى مافى نفسى من سبل أمشى عليها وأهذى أأكون بذلك قد تعاليت على أحد أو آذيت أحداً ؟ لا أتصور ذلك . ففى فيافى النفس وأوديتها ملاعب لطيور الفضاء النفسية ومسارح للخيال لايستطيع الإنسان أن يرى شيئاً فى هذا الكون الواسع إذا لم تره بصيرته . وما أكلنا القلق ودقت عظامنا الهموم والآلام إلا لأننا نشكل حياتنا وأهدافنا فيها فى صور أكثرها لم يشكلها الوعى عندنا أو الفهم ، ولكن شكلتها العصور لنا وأرسلتها ميراثاً ما تساءلنا عن أثره فى حياة من سبقنا وهل أعطى السعادة وهل صان القيم ؟ وهل هو ميراث وقور أمين وعادل ؟ أم أنه غضوب يجب أن يدخله الدين والعقل والوعى والتسامح والإحساس العميق بكرامة الإنسان قفص الاتهام ؟؟

فنحن أبناء هذا العصر ، فى مواقعنا المختلفة لم نكن فى مواقع من سبقنا ولم تكن وسائلنا وسائلهم ولاغضبنا على الحياة مساوياً لغضبهم ولاتجاوزنا على القيم والمثل العليا كتجاوزهم ، نحن قد صبت كل السواقى والأنهر السحيقة بدمها وعرقها وشقائها ومسراتها وخلافاتها فى كبد الإنسان التى هى كبد هذا الكون وأسراره وهنا ترتفع درجة الغليان فى هذا العصر إلى معدلات لايقوى على أن يطرح لها الحساب قلم كقلمى الذى أتكىء عليه فى شيخوخة تجمع أثاث البيت الذاتى لتلق به على هذه الأوراق . فحاطب ليل مثلى كلّ بصره وضعفت ذاكرته لا أظن أن إنساناً ، يكرم شيخوخة أبيه أو جاره ، يرميه بالأحجار متظاهراً على هذه الشيخوخة الضعيفة بقوة عضلاته ، ليس هذا منى ملاذاً أتقى به أحجار الطريق التى لايستطيع قدمى أن يتخطاها أبداً . فما حملت القلم إلا حين ودعت الشباب وودعت العنتريات وصرت إلى جلد على عظم ! وهذه لم تكن نظرة الشباب ولا فلسفته صممت إلى أن أوصلتنى إلى الشيخوخة ، ولكن ربما كان الشباب عندى رقد والذاكرة تسجل أحلام هذا الرقاد لتمليها على الشيخوخة عندما تستيقظ على حقائق الحياة .... من المهد إلى اللحد .

غِيَرُ الأيام هل ستُبقِي جبلاً فى مكانه ؟...

أبــوىّ :

إذا ذهبت أجنى من قيعان الصحراء كمأتها ، وفم الأرض عاض عليها محتفظ بها فى سريرته وقفت حائراً لا أدرى أين هى : أتساءل فإذا الجواب يأتى عاجلا من فم السحب تلقيه على فم الأرض فإذا التى صمتت قبل قليل نطقت لأن فمها الظامىء روته السحب وما نطقت به نستقبله ، فقد استجاب لماء السماء ولم يستجب لتراب الأرض ، وهكذا نحن فى تربتنا وفى سرائرنا ، كلما حاولنا أن نجنى كمأة النفس من تراب أرضنا صمتت ولم تستقبل النداء ، وإن كان دموعاً تذرفها سماء النفس ، نتساءل ما السر فى التربتين ، التربة التى لم تعد تخفى فى جوفها سراً دفيناً كمأة كانت أو طاقة نفط وأخرى لها فى تربة الإنسان وسريرته ميعاد لايخلف افتضاح دخائلها ، فسجاح فى الزمن البعيد مع مسيلمة الكذاب ظنا أن تلاعبهما بالألفاظ فى قيعان الصحراء يعبر عن قيعان النفس فراحا يكذبان ويكذبان لأن ماء السماء الطهور لم ينزل على تربتهما ولم ينزل على كذابَيْن ، بل نزل

على التربة الصالحة النظيفة والطاهرة فى غار حراء ، وليس فى غار جبل اليمامة وهو الجبل الذى منازل أهلى وآبائى وأجدادى على قمته ومازالوا مقيمين فوقها شم الأنوف لأنهم خذلوا كذابَيْهم واستجابوا للحقيقة فلم تلتبس عليهم من بعد ردتهم فى أيام الخليفة الأول ، وغِيَرَ الأيام هل ستُبقى جبلا فى مكانه ؟ هل ستُبقى أنفاً أشمَّ فلا تجدعه ؟ هل ستبقى آمنا فى كهف جبل ؟ هل ستبقى ذاكرة يقيم فيها مسافر إليها من علو الزمن ؟ هل أدرك الإنسان بوعى عميق مايومه بالأمس ومايومه الذى معه ومايتنظره غداً ؟؟ أتساءل لأنى فى يومى هذا حائر لم يبق معى غير التساؤلات فالذى مضى وأحببناه وأعززناه وقبلناه أسلوب حياة لا أوجاع فيها مضنية وكاسرة للعظم هو اليوم يقوض خيامه عند أكثر البشرية ، يقوضه على غير اختياره والرعب الذى يحنى رقبة السؤال عنده كلما أراد أن يرتفع ويستقيم لم يمكنه من مجادلة غريمه إليوم الذى أوحشه التعايش معه . ولأنى من القبائل التى تقوض خيامها حيث لم يبق لى جمل أو صحراء أو بدوية أو شاعر ينظم الصحراء بما فيها وما فوقها من نجوم فى قصائد كنا نتجمع حولها فى سمر الليل نستقبل بمشاعرنا وأحاسيسنا ورؤيتنا كرم النفس التى تجنى من أعماقها الصدفات الثمينة مثلما نجنى نحن الناس العاديين كمأة الربيع ....

وعالم الصحراء هو الرمز لمكارم الأخلاق وهو الذى إذا قرأناه واستضافنا فى منازله فى بطحاء مكة أو أرض يثرب وساءلناه عن دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان والحمراء أين هى صمت ولم يجب فقد نحل هلال السماء ، فلم نعد نرى شيئا ، نعم لم نعد نرى قمرا لنرى مِن هناك ..... وهناك ماذا تعنى فى سريرة البدوى أو علانية المثقف ؟؟ ماكان هناك ولم يكن هنا كيف لى أن أنزع البرقع عن وجهه ؟ والذين حاولوا نزع البراقع ماذا عنهم ؟ لنتجاوز الطريق الضنك فهو لايحتمل من يمشى عليه ، ويقول له : من فضلك أعطنى فرصة أمشى فى حرية لاتضايقك .... والسير على الأقدام أهو السير الذى يستشرف البعيد ؟ أبدا فالسير هو الذى تستشرفه خطاه فى جمجمة الإنسان وعقله .... وآكلة الأكباد هل قرأتها فتاة اليوم ؟ وهل قرأت عنها يوم لقائها مع نبى الهداية ؟ ماذا قال لها وقالته له ، تركها تمشى فى الطريق الذى لم يكن ضنكا بكامل حريتها ، ولم يقتلها أو يكسر قدمها حتى لاتصل إليه .....

ما أكثر ما أخذتنى خاطرة عن الطريق الذى نويت أن أسير عليه ، ومن تسيره خاطرة أو تقعده فى أثناء الطريق خاطرة أخرى ألا يتساءل عمن ذا الذى يطلق القيد داخل النفس ويقول سِرْ ! ومنذا يعقله ويقول : لاآذن لك أن تمشى ؟ أهى تعليمات الشارع العام

وأوامره ، أم أنها أوامر ذاتية من مكانها الذى يرقب الحركة عند الإنسان فيرخى له الرسن أو يلجمه ؟ سؤال يتبعثر الجواب عنه تبعثر قلب أم حزينة على وحيدها لأن كل طريق مهما اتسع يضيق بالجواب عنه .... وقد اتسع الطريق فى فلسفات قامت ثم ماتت ، وأخرى مشت فتعثرت وهكذا فى كل طريق نجد السؤال يتذبذب يمشى وحده أو يصاب بالانفعال والغضب فيتحول إلى ناب لأنه يطارد الحرية يتساءل : ما لونها ما مكانها ماهو القدْر الذى ممكن أن يؤذن به لها ؟ وعلى جانب الطريق الذى يمشى عليه السؤال ويقف أتوارى فى قلب الصحراء التى لاحدود لها لعلى آخذ حريتى مع من ليس له ناب ولامخلب ، مع الجبل ومع الفدفد ومع النجوم ومع الهواء الطلق .... وعلى جناح الجبل الذى لم ينبت ريشه بعد ، ولم ينفعل ويغضب ويصب بمرض الحضارة ، جلست وحدى وصحت بملء فىّ ها أنذا أملك حريتى فجاء الجواب من داخل النفس أن تعمق ولاتسرف فى سطحيتك . ليست الحرية لباسا تخلعه فى بيت الطين وتعلقه على وتد من أوتاده ... الحرية ليست مطية تركبها من مكان إلى آخر لا ، هى أوسع وأكبر وأعظم من أوامرك ونواهيك فى وحدتك أو فى قلب مجتمعك ، هى إمام تقى لمجتمع الإنسان والكون الذى يصلى وراءه هى قدرة الإنسان أن يرى ببصيرته كيف تمشى كل

هذه الكائنات فى مسارها طائعة غير مذنبة ... وإذا كانت هذه حال مجرات هذا الكون وكواكبه فكيف بك أنت الوحيد فى هذه العوالم الذى له حق الاختيار فى الطريق الذى يمشى عليه ولم تنتقص حريته قيد أنملة ؟

وعلى مدرج النفس حركت قدمى نزولا وصعوداً فإذا الذى ظننت أنه وحده الذى يضع القيد على حريتى لم يكن إلا تذبذباً فيما بين الظن واليقين ، وفى الطريق الذى سرت عليه فى مدينتى الخاصة ماذا رأيت ؟ رأيت مجتمعا لم يثقل قدمَه ترابُ الأرض أو ترابُ القمر ، إلاّ أن الثقل الرهيب الذى يفرى كبد الإنسان أعيانى تحديد ملامحه ! ! وعلى مشارف مدينتى الخاصة سجلتُ عجزى وقلت لها وداعا لن أخطو خطوة واحدة ، فمتاهات الصحراء أو متاهات هذا الكون أكثر أماناً من المتاهات فى دروبك الوعرة ، وإنسان يودع ذاته وتعييه المحاولة أن يفك رمزا واحدا من رموزها آن له أن يعقل سانحة من سوانحها ويقول لها : لست التى آمنك على نقل الأخبار إلىّ فأنت خداع بصرى لازائرة ومعك أحلام جميلة ...... ومن يودع مدينته الذاتية إلى أين يذهب ومنذا يستضيفه وهو جائع وعار ، ولا كل لباس يستره ، ولا كل قوت يسد جوعه ، ولا كل شراب يروى ظمأه ؟ مثل هذا ضيف ثقيل لا يقبل بنزوله ضيفاً عليه إنسان ، هو

الآخر مستور الحال .... وحتى لا تأتى فكرة متسلطة يائسة فتدفع بمن حاله هكذا إلى الانتحار المحرم شرعا ليفتحْ كتاب الإنسان ليقرأ من هو.

فنفس الإنسان ما أكبر قدرها وأعظم حرمتها فى كل الشرائع السماوية وفى كل جمجمة لم يدخلها مرض العصر. فالإنسان وإن عجزت كل المدارس النفسية وكل النزول فى أعماقه أو الصعود منها عن أن تراه ، دوره غائب عن ذهنى وعقلى ، ولكنى لا أستبيح دمه مثلما لا أستبيح عرضه أو ماله ... ألزمتنى بذلك عقيدتى ، ولا أدرى أهذا العصر الذى استخف بالقيمة العظيمة للإنسان وأغرقها بالدم وفوضى النجاسة الخلقية ستكون غوغائيته وفوضويته تحولا رهيبا ومتعطشا إلى أن يزعزع القيم والمثل من نفس الإنسان الخيّر ويبنى عليها قلاعا من التدمير؟ هذا التساؤل فى قلب الصحراء لاتحمل الجواب عنه هذه الجبال وهذه النجوم وهذا الليل الساجى بجناحه على أحلام جميلة وروض مريع هجعت طيوره فى انتظار الصباح ... والصباح فى الصحراء أو الليل الذى ترك له مكانه كيف نستقبل هذا ونودع ذاك إلى أن يعود ، وهكذا ، هل ألفنا هذه الحالة ؟ نحن لا نملك أكثر من الخيال ومن التصور ومن ممارسة التجربة فى نحول معارفنا وضعف جناحنا ، فيوم أرقب الطير القوى أو الضعيف فى الصحراء

وهو يطوى جناحَيه ليعطى قدميه منافستنا على السير فوق التراب يفاجئنا حين نحاول أن نتظاهر عليه بقوة أقدامنا وسواعدنا حاملين معنا رمية قاتلة له ينشر جناحيه ثم يصعد قائلا لنا أنا ذو قدم وذو جناح أبقَ فى حدود قدمك الترابي وهنا يصيبنا الغيظ فى الصحراء والتساؤل لماذا له أجنحة وله أقدام ونحن لاجناح لنا ؟ والعربي القديم الذى نادى الطير يوم رفعه جناحه أمام عينيه :

« أسربَ القطا هل من يعير جناحه » ... ليته لم يناده وظل مع جماله ونياقه يولدها وترك للطير حريته وفطرته ، ليت بدويا مثله يخط هذه الرسالة ما رأى الجناح ولا ركبه فى عصر غزو الفضاء لأن جناحه ليس كجناح الطير الجميل الذى كثيرا ما أطربنا صوته وكثيرا ما جمّل الصحراء فمن يدرى أهذا الذى يجرى الآن غضب الحياة علينا وفيض طوفانها لنغرق فيه حتى ينطفىء النفَس ؟ لا أحمل على ذمتى تصورا لا برهان لى عليه ، ولكنى أتعامل مع قلمى الآن من خلال فقدانى لسكينتى مع هذه الحضارة وما فيها من ليل ونهار .... وَلِمَنْ استراح فى ظلها وأمن وقبل بها جملة وتفصيلا أعتذر وأهنئه وأبارك له سكناه فى بيتها . ولكنى أعلق هنا أمام ناظره صورة تسائله : مادورك فيها ؟ هل هى اليد العليا وأنت اليد السفلى ؟ الذى يحدد كرامتك ويحقق وجودك أن تتعرف على مكانك الذى فيه معقدك منها ، هل أنت من

الحاشية التى تتلقى الأوامر أم أن لك مكانا فى الصدارة ؟

الجواب معلق على ذهنك وعقلك وعلى أمانتك ....



ليته لم يُكتب

أبويّ :

لا أدرى وأنا فى هذه الرسالة مقبل على طريق وعر أأستطيع أن أتجاوزه سليما من العثرات ! أم أن المخاطرين من الرجال والمغامرين لايتساءلون عن السبب أو النتيجة ؟. ولأنها لاتحملنى نفسٌ مغامرة أوساق تخشى الانكسار كم ترددت وتهيبت أن أنوح على جنائز التاريخ التى ظلمها الطغاة واستباحوا دم الأبرياء والضعفاء ، فبالأمس أكملت قراءتى لجزء من التاريخ البشرى الذى لا أدرى من الذى سجله من الدم القانى ؟ أهى الأهواء ؟ أهى الحقيقة ؟ أهو جزء من دور الإنسان مع هذه الحياة ....؟

أتساءل لا لأنى أعيش فى عصر مثالى لم يَلغْ فى عطش لايرتوى فى كبد الإنسان ودمه ، وليتنى يوم تساءلت لم أجد فى عصر غزو الفضاء وعصر القنابل النووية شاهدا يزكى كل ماكتبه التاريخ عن الماضين والماضى بداية من اقتتالهم بالحجر والعصا إلى السيف والرمح وخناجر لامنام لها إلا على كبد عطشى ! ! والسؤال الذى أوحى به

إلى آخر كتاب قرأته بماذا خرجتَ من قراءتك لى ...؟ لك معى أعوام طويلة وأنت تجالسنى كلما سنحت الفرصة حتى مللتُ من نقل الأخبار إليك ، وأصابنى الحياء من نقل أخبار قوم تجاوزوا على حرمات الأحياء دما وعرضا ومالا إلى نبش القبور والعبث بالرمم البالية ؟؟

أهذا الذى يتصاعد عبر الأزمنة فى اتجاه الأحقاد والعبث بالحياة إلى أن وصل إلينا حاملا معه أسرارا رهيبة فى الأرض وفى الفضاء من أجل قتل الحياة فى كل شىء وليس فى الإنسان وحده سببه ثارات زمنية وأحقاد وعطش للدماء لم يعفّ عليها الزمن ، ليت التاريخ يوم كتب لم يجد جامعات وفلاسفة ومفكرين ودهاة سياسة يزكونه ويفلسفونه ويضعون عليه شروحاً وهوامش لم تكن ألفاظا وتعبيرات هادفة إلى تصحيح مسار الخطأ ، ولكنها فلسفة وأفكار أنتجت الرعب والقلق والسأم فى نفس كل إنسان على هذه الأرض ، فوسائل الترويع لم تعد فى غابة من الغابات يتحاشاها الإنسان من أجل أمنه واستقراره ، ولكنها معه أينما اتجه مبثوثة فى الفضاء أو مرئية بالعين المجردة ، وهذا الواقع الذى حتى الآن ، وهو معنا وفينا لم نمض ونتركه وراءنا تاريخا يأتى من يقرؤه فيتساءل عنا وعنه ـ نحن أبناء هذا الجيل ـ ألا يمكن أن يكون فى هذا العالم الكبير ـ عالم

الأقوياء بالذات رجل رشيد يملى على التاريخ تحولات لم تكن هبوطا من فوق درجات سلم الحياة فى سرعة إلى أعماق القاع ، ولكنها صعود بالإنسان من أعماق القاع إلى أعلى درجات السلم ؟ فالذين صعدوا إلى القمر وقالوا للضعفاء فى الأرض تناولت أيدينا حبة من حبات العنقود وكوكبا من كواكبه ألا يمكن أن نقول وماذا بعد ...؟ وما فى هذا من غرابة ...؟ فنحن من تظنون أننا الضعفاء لانُكْبركم فى ذلك ، ولكن نعظم من أعطى الإنسان هذا السلطان ونضعكم فى حسابنا مع الحق والباطل ، مع الخير والشر فى المكان الذى ينتهى بكم سُراكم إليه مدلجين وإلى أين ....؟ هذا هو السؤال الذى تنتظر الحياة الإنسانية ومثلها العليا الجواب منكم عنه ... فليست القوة فى تلك المركبة التى أوصلتكم إلى هناك ، ولكن القوة الخلقية هى القوة التى من ركب مركبتها وأوصلته إلى كوكب من كواكب النفس أعلى وأسمى قدراً من كل كواكب السماء التى تدور فى الفضاء أتربة ومجرات مضيئة أو منطفئة ، مصيرها إلى التداعى وإلى التكور أمفهوم هذا عند غزاة الفضاء ...؟ فهذا الكوكب الذى هو هبة الله للإنسان وكرمه عليه لن يذهبوا عنه ولايعودوا إليه غدا فهم هنا ومقابرهم هنا ، وقد تكون هذه القوة هى موطن الضعف فيهم ، ومن يلاحظ كيف تأكل الإنسان وتنحت قيمه وتضعه فريسة للهموم والشقاء

والضياع يدرك أن كل قوة ستنالها يد الفناء .

ما هبطت على خاطرى فكرة لم تكن من شجرة الإنسان أبدا ، ولاتمنعت وتحجبت كلما طرقت بابها وناديت عليها إلا لأنها لاتستقبل طارق ليل لاتثق بعفته وطهارة مقصده ، وليت التداعى الذهنى الذى يأتى فى شكل فوضى إبل أوردها الراعى بئراً ناشفة ، وهى عطشى فأخذت ترزم بالحنين من شدة الظمأ والراعى يناديها أن تعود إلى النظام وإلى الانصراف عن بئر ناشف قاعها ، لم يتداع فى عصرنا هذا بفوضى كفوضى إبل الراعى وعلى ماذا ...؟ على بئر ناشف قاعها ، وإبل الراعى ناشفة أكبادها من الظمأ ، تشبيه علق بذهنى من أيام طفولتى فلم أجد أقرب إلىّ منه ، ففيه سمة من سمات ذكريات الطفولة .

والتاريخ أهو حاطب ليل أم نهار يجمع من الوادى البشرى أنفاسه ويحصى عليه خطواته ، وهل هو أمين لايزوِّر ملامح الجميلة لحساب القبيحة ؟ وهل هو ألفاظ تسجل من الدموع ومن الأكباد طعنات قد تكون وصايا ومواريث لأجيال وراء أجيال ، أم أن حكمه حكم الشباب فالشيخوخة فالمرض فالموت دورة تطرد أخرى ، وأخرى تلاحق أخرى وهكذا تفسره الأحداث وتقرؤه للإنسان فى خرائب قصر هذا وجده ذاك ، أتساءل والجواب يفرى كبد السؤال

ولايعطيه إجازة ليضرب خيامه فى أيام الربيع ، فالخريف يطارده ولايمكنه من ذلك ، قصيرة هى أعمار زهرات الربيع مثلما هى قصيرة فى زهرات الإنسان ، وإذا جاز لرعاة الإبل والضأن أن يرتادوا لقطعانهم زهرات الربيع ، وصارت هى والخريف فى سباق حول افتراس الجمال فيها فماذا وشباب الإنسان ؟؟

أفى هذا نوع من التجاوزات على قدر لابد أن يَنْفُذ حكمه فينا نحن بنى البشر ـ فأعتذر وأستغفر الله ، أم أن الجدل حق للإنسان إذا كان يحاول أن يثير بذلك جملا ثاويا فى نفسه ، ويطلق عقاله وقيده ليمشي فى حرية لا سلطان لأحد عليها غير شريعة السماء ؟

فما ضاع أكثر البشرية فى متاهات نفوسهم ، إلا لأن رواحل هذه الذات التى وهبها لهم بارئها قد اعتقلتها علل وقيود وشهوات وأمراض خلقية ، لعلها هى السبب فى كل ما عانته وتعانيه البشرية . وما من لفظة أو جملة أو اتجاه فى سلوك سلبا أو إيجابا جاء فى هذه الرسائل إلا ومكانه الذى أخذته منه وأثارته التجربة والملاحظة عندى من ذاتى ، وليت الإنسان يراقب نفسه ويسجل عليها ما تتداعى به من ميول ونزعات . وفى يقينى أنه سيجد نفسه محاصراً بأشباح وتخيلات وصور دميمة وأخرى جميلة ، والحصار هنا لايفكه غير معركة ضارية بين الخير والشر ، وما أقسى هذه المعركة وأشدها ضراوة

على إنسان يدخلها دون سلاحها الذى به ينتصر ، والسلاح هنا ليس أكواما من الحديد ولا أكواما من الألفاظ العائمة على الباطل ، ولكنه الوعى لحقائق سامية لايجدها فى غير رسالة اقرأ ـ هذه الرسالة التى وجهت الإنسان توجيها كريماً إلى أن يقرأ ، وماذا يقرأ ....؟ يقرأ مشاهد هذا الكون العظيم والعوالم الواسعة ليخلص من قراءته إلى دنيا الخلود ، أما الذين لايقرأون ولايدركون معنى القراءة ومعنى رسالة القلم الذى يخط للقارئ طريق الخير ويوجهه إليه ويصرفه عن طريق الباطل والمبطلين ، فهؤلاء لن ينتصروا فى هذه الحياة ولا مابعد الحياة ولا أتجاوز بذلك على الله لكننى لا آمن عليهم عاقبة أفعالهم الذميمة .

ما أسرع ماينطرح الظل من شجرة الذهن ، وما أسرع ما ينسحب وتأخذه إليها على عجل ، فيوم جلست أخط هذه الرسالة كان الظل ممتدا وكنت معه مرتاحا إلى أن أتمدد فى هذه الرسالة ، ولا أجلس القرفصاء وأتكور على نفسى ، ولكن تبين لى أنه ليس فى قدرة إنسان مثلى معسرة شجرته الذهنية أن يجنى ثماراً فيلقى بها فى فم القلم وما أدركت هذه الحالة إلا حين نشف فم القلم يوم نشفت الساقية التى تسقيه .

وقلم ظمئ إلى الحقيقة فلم يجد من يورده مياهها العذبة ألا يستحى حامله ويخجل ويلقيه على قارعة الطريق ، لعل رجلا أو

رجالا يدركون رسالة القلم وعندهم له مورد لاينضب ولا يجف فيضه وعطاؤه فيحملونه على أكتاف وعيهم؟ هذا الذى يجب أن يكون ولكن « ماكل ماشية بالرجل شملال » ....



جلستُ أسائلُ الرسم ...

أبـويّ :

في عالم الإنسان تعبت أقدام الماشين فأصابها سهم القضاء والقدر قبل أن تستشرف البعيد الذى تسير إليه القافلة ، وعلى جناح القلق ، لاجناح الخيال ، أنزلته الرحلة فى قاع صفصف محت من فوق كبده الرسوم والأطلال وجدعت أنف الجبال فذلت كبرياؤها ، صور تعرضها على جدار القلق والضجر سنة الحياة وهدفها الذى تمشى إليه . وما لعبت الرياح بسفينتى التى أركبها فخشيت الغرق وسط الأمواج العاتية إلا وقف على اليابسة من يخيفنى أكثر وما بين هذا وتلك غرق لامنجاة منه ، ومن لم تأكله أتربة الأرض وديدانها أكله الطير ، ومن لم يأكله الطير أكلته الحيتان ، حقيقة ليت الآمنين فى منازلهم يقولون لنا كيف بنا والأمان ...؟ لا أدرى ولكن يوم قال لنا أبو الطيب :

كَفَى بكَ داءً أن ترى الموتَ شَافِيا

وحَسْبُ المَنايا أنْ يَكنَّ أمانِيا

تَـمَـنَّـيْـتَـهَـا لـمَّـا تمنيتَ أن تَرى
صـديـقـاً فـأَعْـيـا أو عَـدُوّاً مُـداجِـيـا

تساءلتُ إذا كانت هذه حاله وهذه فلسفة عصره قبل أكثر من ألف عام فماذا عنه لو رأى إنسان اليوم ورأى غربته بين أهله وجيرانه ؟ وعلى مفترق الطرق وقفت أسائل الماشين : من منكم لديه ضالتي التي حفيت قدماي من البحث عنها وبح صوتي من ندائي لها ... من ساءلته قال مسرعا : الحقيقة أمامي ، الحق بي لتلحق بها وكل من ركضني خلفه وأعياه التعب ، سقط فوق التراب وقال : هنا أكرمْني وواربى فى جوفه .

وإنسان لايرى ولا يتساءل ذهنه ، ما أكثر من مرّبه على مزبلة التاريخ يستقبل بصاق مرضىٰ الأخلاق ومرضى فكرة العدم . وحفاوة السؤال أو حرقته فى عصر لايردف جملَه حافياً أدمت قدمه أحجار الطريق ، أللسؤال من معنى فنلقيه فى سمعه ، أم أن الكل مشغول عنه بنفسه ...؟ هو هذا ، وهو الذى يعيد إلى السؤال نفسه ما أنت وهذا العرج الذى به تضايق المارة فى الطريق الضنك ، من أنت وما هى روائحك ..؟ أفيك ريح الخزامى ..؟ ونفح شجرة الرمث ...؟ تفوح منك رائحة العصر وهى رائحة زكمت أنف الصحراء ، ليت الرمال ومياه شطآن الخليج أجلت مللها وضجرها منها ، ليتها يوم ضاق

صدرها بالجنين الذى ولد فى مضرب خيام من قال لحليلته :

أماوى ما يُغنى الثَّراءُ عَنِ الفتى
إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بها الصدْرُ

لم تسرع الخطى إلى صخور القمر وتعيينا أمام عالم النجوم والكواكب ، ليت رسالة اقرأ ، رسالة الفكر والعقل ، والسير الدؤوب فى عوالم هذا الكون هى التى رحلت وكان رائد السفينة من فقهاء الرسالة الإنسانية . ليت هذا حصل ليتنا نحسن النقد الذاتى ، ليت لنا عقولاً تحتمله ، ليت لنا تواضع العلماء ، ليت لنا جبلا واحدا نعتصم به ، ليت وليت غير مجدية ، ليت الذين ركبوا أكوار المطايا وظهور الخيل معتصمين بحبل الله الواحد يرون كيف قُطع هذا الحبل إلى نتف من الشعارات فى عصر الكتل البشرية ...!!

ليت الإنسان العربى ، ليت الإنسان المسلم يَغرق فكره وتَغرق معه روحه فى هموم أمته وعذابها فيجرد قلمه وبعدل ووعى لرسالة القلم يقول الحقيقة ولا يظلم أحداً ، ويفرى كبد الجريمة فى عالم العرب والمسلمين بقلمه حتى لاتصيب عدوى اليوم جيل الغد ، وحتى لايزور التاريخ ، فُتَزَوَّرُ معه شخصيةُ العربى وأخوهُ المسلم !!

أبـوىّ :

ما تعودت قدماى أن تصعدا الجبل إذا لم يكن على قمته بنىٌ

الطائى بيت الشعر أو على هامته أوقد ناراً لقبيلته عروة بن الورد ، وصعود الجبال متى عهدنا به ...؟ هذا هو السؤال الذى يبرك فى فم قلمى الآن فلا أرحله لأن الجمل هزيل ومهما نخست خاصرته لن يستطيع أن يقوم ، وما هزال ناقة البدوى الذى يعيد له الربيع نشاطها بمساو لهزال جمل الذهن الذى لاربيعٌ له ولا غيثٌ يعيد له دورته ، كيف به مع الهزال ...؟ من نسأل ...؟ حائر أبحث عن الطريق الذى يهدينى إلى من يصفه لى ، أحاول أن أتعاطى من منشطات الذهن فى غسق الليل مع نجوم السماء فى قفر أقفرت شعابه من منازل البدويات ولم تعد ظباء الفلاة يطارحهن قيس وليلاه الغزل .

وعلى موقد النار الذى صار رسما لمن قال عنهم رهين المحبسين

الموقِدُون بِنَجْدٍ نارَ باديةٍ
لايحضُرون وفَقْدُ العِزِّ فى الحَضَرِ

جلستُ أسائل الرسم أين أهلُك ...؟ أين هم بالأمس البعيد واليوم القريب ...؟ صمت الرسم ، فكم من صامت أبلغ فى صمته من سحبان وائل ، فالرسوم والأطلال أهى فى منازل أقفرت من أهلها ...؟ أهى فى خرائب الطين والأحجار ؟ أهى فى عامر خلقت جدته ؟ لا أدرى .... ! !

أستسهل الطريق الذى أمشى عليه محدودباً على عصاى ، فالسنين

التى أكلت بأسنانها الحادة قدرتى على السير تدفع بى إلى الأمام فى اتجاه سيرى مع الحياة والأجل ، ولأنى لم أبك فى طفولتى على صدر أم أو أب ما أبقاهما لى الموت ، لم أقبل أن أفارق الحياة دون أن أبكى أو أصرخ .

سأبكى هنا قبل الرحيل . سأسترجع طفولتى وأبكى على صدر الحياة وصدر كل ثكلى غدر الشر بوحيدها . فمجرى الدموع ساقية متى أطلقها الإنسان فى مجراها وعرف لهذا المجرى معناه فى كرم الله عليه أخضع كل خشونة وكل جفاف طبع وكل كبرياء لهذه الدمعة الحزينة .

عزائى لمن لايبكى .... عزائى لمن لادموع له ...!

ولمن يخالفنى فى ذلك ويقول عنه خور وضعف لاتتعجل الاعتراض ، دورك آت إن كان فيك بقية من إحساس وذاكرة للطريق الذى مشيت عليه والطريق الذى مفض بك أجلك إليه ....

فما بكى شيخ فى بيت كريم إلاّ بكت معه حيطانه وتجاوب فيها الصدى ، ولعلى هذا الشيخ الذى لم يبق فى قدرته غيرُ الحنين والبُكاء فى سَمْعِ الزمن ، والزمن وسمعه ، والبكاء الذى نرسله إليه أو الحنين أو الصراخ ما مدى استقباله أو رفضه ...؟ هذا الذى لايثار فيه الجملُ من مبركه ويُضرب بالعصا ويقال سر وإياكَ وثنى الركب ! !

وقبل بألف وخمسمئة عام بكى تحتَ سفح جبلِ الدخول وحومل امرؤ القيس فقال :

وُقوفاً بِها صَحْبي عليَّ مَطِيُّهُمْ
يَقولونَ لا تهلِكْ أَسىً وتَجَمَّل

وإنَّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ
فَهَلْ عِندَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعوَّلِ...؟

وبعده قال دِعْبِل الخُزاعي :

لاتَعْجَبي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ
ضَحِكَ المَشيبُ بِرأْسِهِ فَبَكى....!!



لو كنت كاتب التاريخ

أبويّ :

ما أكثر مامشيت إلى الخلف وناديت على الواقفين أو الماشين إلى الأمام أن عودوا إلى وإلى الطريق الذى خلفناه وراءنا ولا أدرى أأنا بهذا حجر فى طريق يهشم أقدام المارة أم أنا جبان يخاف من المجهول ؟ أقدامه لاتحمله شبراً واحدا إلى مكان لاحت له فيه أرنب خفق قلبه من الرعب منها يوم ظن أنها وحش مفترس ... فالخائف والجبان لاتسافر معهما قافلة ترتاد الربيع فالشجعان من الرجال هم الذين قادوا البشرية إلى مواطن الخطر والخوف فاستباحوها ورفعوا عليها أعلامهم ، فما أكثر ماضربت خيامى فى منازل فارس بنى عبس ، وما أكثر ما حولتها إلى منازل الطائى وما بين المنزلين لايعدو غير ساعات من نهار . صُوِّر لى أن المنازل هى التى تصوغ الرجل الفارس والإنسان الحاتمى ، ولكن التصور إذا صار إلى أحلام اليقظة خفق الرعب جبنا وشحا وبخلاً ، وإن كان الإنسان الجبار والشحيح فى منازل الطائى أو فارس بنى عبس ....

على أثر حافر جواد امرئ القيس فى كره وفره أوقفت راحلتى يوم كان لى راحلة على جبله ، وإذا الصخور تتراءى لى فى عدو جواده تدفع بها السيول العارمة من القمة إلى السفح فأثارت الذكريات فى نفسى ، أن هذه المنازل وهذه الصور التى تتداعى منها ليس ببعيد أن تودعه الذكريات وتنصرف عنه فإلى أين هى ذاهبة ؟ يتراءى لى أن معاول الهدم فى ذاكرة الإنسان هى التى لا مناخ لها عبر الزمن فى بيت لايستقبل الذكريات هروبا بنفسه من ذكرى قد تقص عليه كيف دمر بيتها وحوله إلى أنقاض قدر ما نزل عن ظهر راحلته يطوف بها من بيت إلى بيت ومن جبل إلى جبل يسائل كل بيت ماذا بداخلك ؟ هل فيه من يصونه لوريث أم أن من يعبث به فأنزل ضيفا عليه لأصحح مساره ؟ لعل ذاكرة تحمل الخبر عظة لآخر. وهكذا الحياة مع القدر والإنسان ، أتلهى بهذه الحشرجة كلما خلوت إلى نفسى لا لأعترض سير التاريخ فى عرض الطريق وأنيخ جمله ثم أعقله وأقول لراكبه من أنت ؟ ماذا أنت آت به ؟ من أرسلك ! من زكّاك ؟ أأنت أكذوبة أرسلها إلينا أفاك ، أم أنت واعظ لبس عمامة الوعاظ وجاء إلينا من علو الزمن يقص علينا أخباراً لأمم وأجيال مرت بالحياة ، ثم غادرت على جناح السرعة ؟ تساؤلات لايثيرها الشك أو البغضاء أو الحسد ، ولكنها حالة كثيرا ما أثارت فى نفسى

الاشمئزاز أخبارها فى أيامها التى جاءت منها . لوكنت كاتب تاريخ أميل إلى كشف عوراته أو سترها ماذا عنى ؟ وعما تمليه علىّ اليوم أحداث جسام فى أشخاص أقزام فى عالم لم يعد فيه مكان يستريح فيه واعظ أو كاتب تاريخ أو عابد فى محرابه .....

وأطوال الرجال فى أطوال أفعالهم الحميدة ، وهكذا أقزام الرجال لايمكن أن يكونوا فى مكان غير مكانهم ، وإن حاولت كل الأقلام المنافقة أن تزوِّرها وتنقلها من مكان الرذيلة إلى مكان الفضيلة . ما أقوله هنا وأعنيه هو عموميات لامكان لها فى ذهنى الآن ولازمان ، ولكنها صورة خفقت فى أفق الإنسان ثم ألقتها على فم القلم فسجلتها هنا ولا أتصور أن رجلا يردها إلى نفسه أو تؤذيه فيدين بها نفسه ، أبداً هى صورة عابرة سبيل عام لا مناخ لها فى بيت هذا أو ذاك ، هى أنين شيخ تجادله داخل نفسه فى هزيع الليل أحلام ما تراجعت عنه فى لحظة نعاس ، كثيراً ماقالت له ربة بيته لماذا أنت هكذا ؟ ألا تهجع فقد هجعت هذه النجوم فى آفاقها ؟ لماذا أنت فى حالة من القلق وعلى ماذا ؟ مسكينة هى من تظن أن الحياة فراش وثير تنطرح عليه جثة تغط فى نومها غطيط البكر - كما قال امرؤ القيس . فيقظة الإنسان هى التى ألقت عليه مسؤولية دوره فى هذه الحياة . واليقظة هل هى أن يصحو الإنسان من رقاد طويل وعلى

ماذا ؟ هذا هو السؤال الذى لا أحمل الجواب عنه من ذهن كل مافيه فراغ .... !

ليت ذهناً لم تصفر فيه رياح الفراغ يعترضنى فى طريقى قبل أجلى فيملى علىَّ لون تفكيره ويصف لى الطريق الذى إذا وضعت عليه وسادتى واضطجعت لايصيبنى الأرق .....!! ليت الأمنيات التى تبنى فى ذهن الإنسان أحلامه على وساد إذا استيقظ عليها إذا هى حقائق ولم تكن أحلاماً مزعجة يطردها الصباح . والذى يشكل الأحلام فى الذهن عند الإنسان أهو الظرف أم الميراث ؟ وهل مايتركه الإنسان وراءه يمكن أن نقول عنه أحلاماً أوجعت الإنسان طويلا فاستيقظ على أوجاعها فى آخر الطريق فوقف متسائلا : هل ما أنا مقبل عليه وما هو لى من يوم أو شهر أو سنة فى هذه الحياة لى خيار فى القبول والرفض ؟ أم أن المكان الذى درجت عليه أولى خطاى شكلنى بلونه وحط على عاتقى أثقاله وقال : هذا أنت مهما جددت الحياة فى طريقك معها شعر مفرقك ، فلن تكون شابا فى عقلك وذهنك ، فحيل الحياة وحيل الآمال الكاذبة مافكت حبل الرق من رقبة مادخلت مسجداً إمامه فيه وجدان نقى وطاهر وسريرة ما لوثتها مواريث البيئة الرديئة ....

أعض على سبابتى الآن بأسنان الماضى كله ، وهى أسنان قد

تكون أخبث من أسنان الذئب ، فمرارة الكلمات هنا مع الذكريات لا تهزمها فى كهوف الأيام والسنين تظاهر المثاليات المخادعة عندى أو عند غيرى من الناس ، فما أكثر من ظلمناه وما أكثر من أكلنا لحمه فى سرادق الوليمة التى لم يقمها كريم ، ولم يناد عليها ضيوف حاتم الطائى . وكتابنا العزيز ما أكثر مازادنا عن هذه الوليمة وحذرنا من الالتقاء عليها .... فهل مايجرى اليوم عند أكثر البشر وليمة تلتقى عليها الذئاب ؟ لا أستطيع أن أعود مرة واحدة إلى مثل هذه المائدة الكريهة ، لذلك أترك الجواب معلقا لمن يستطيع أن يرد عليه .... أتركه وأمشى حذراً فى خطاى أن تقع على مكان نجس . نيَّةٌ وأملٌ هذا الذى أحاول أن أدرب خطوى عليهما فيما بقى لى من أيام ، فهل يتركنى ماض يطاردنى ليبقينى فى رقة ؟ هذا الذى أدخل معه الآن فى تصفية الحساب ، ولعل قارئاً يمر بهذه الكلمات الأليمة وهو لايعرفنى يتصور أننى مشعل الحريق فى مدينة روما لا ، معذرة فما أنا إلا رجل عادى جداً ، من فضل ربى علىّ أنه حمانى من أن يكون لى مقعد منه تعبر إلى الشارع العام فى دنيا البشر أينما كانوا ، بذاءتى وتجاوزاتى وهدمى لسعادة هذا أو ذاك .... ولكن الجريمة إن ظلت حبيسة فى السريرة أو طليقة تعبث بكرامة الإنسان تبقى جريمة ، وإن اختلفت فى مواقعها وما أحرثه فى تربتى الذاتية وأعود إليه لا أستسهله ، وإن

كان غيبة أو نميمة وإن كان أمنيات فاسدة وإن كان قذف هذا أو ذاك بعبث الألفاظ ، آخذ هذه الحالة من السريرة إلى العلانية مادام لى من الحياة فسحة لعل إنسانا يعوق الخطأ فى نفسه مبكراً قبل أن تلحق به الشيخوخة فيلحق معها الندم .... ! !



خافقــة أفئـدتها بالحنــين

أبـويّ :

سأفضى لكما بما فى نفسى من حنين دونه حنين السحب ودونه حنين الرياح ، حنين يخفق بجناحه كما يخفق الطيُر الجريح ، حنين تكابده روح ووجدان أخلق الزمن شبابهما وصارت تلك الملابس الشابة أسمالاً بالية . وبماذا جاء هذا الحنين فى آخر العمر .. ؟ لماذا لم يأت مبكراً .. ؟ فما فى هذه الحياة ولا فى هذا الكون عاص أو مذنب صامت لا ينطق بجملة واحدة فيها آهاته وحنينه غير الإنسان ، اليوم وبعد طريق مشيت عليه طويلا لم يعد فى يدى القبض عليه .

فخفقات النجوم والشموس والأقمار وطيور الفضاء . ما نراه بالعين المجردة ، ومالم نره كلها خافقة أفئدتها بالحنين إلى الله ، بالسجود له طوعاً أو كرهاً ، وأنا وحالى مع الخطايا والذنوب قدرت بعد تردد طويل أن أخرج باتجاهى الذى نويت أن أمشى عليه من السريرة إلى العلانية ، لا لأرضى هذا أو ذاك ولا لأعلن عن هويتى فى آخر عمرى ، أبداً ولكن لعل شيخاً أمهله القدر ومد له الأجل

بارئه يعاود نفسه ويقرأ سجله الخاص الذى كتبه سلوكه فيتحول من النقيض إلى النقيض ويتعلق فى باقى أيامه بحبل الأمل والرجاء وإن سجدتْ جبهته على الأرض ليلاً ونهاراً تذرف الدمع غزيراً نادمة جريحة تبتهل إلى الله ، فإنها فى ميزان العطاء والكرم الذى بين الله وعبده لا تساوى نفساً واحداً لم يختنق ولم تصب عرصاته بآفة من الآفات . فما بال الإنسان وباقى نعم الله التى أكرم بها .... ؟

فى هذه الرسائل لا أنظم عقداً بمثل هذه الكلمات الطافية على السطح والتى لا ثقل لها يأخذها إلى القاع فتجنى لآلئ من الصدفات الثمينة . فجائع مثلى وظمآن وعارٍ كلما حاول أن يبنى بيته الذاتى تهدم !

وقلمى الذى أثقل يدى وظل يرتعش على هذه الأوراق ارتعاش الألفاظ الآتية إليه من كل مكان يرتعش من الوجل والخوف والندم ، أهو قلمى وحدى .. ؟ لا أتصور ذلك فأين القلم الذى لم يرتعش ولم تدفع به الألفاظ العائمة على بحر من الهواجس والظنون وغضب الحمق .. ؟ إنه القلم الذى لو كانت كل البحار مداداً له ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى .. هذا هو القلم الذى لا يرتعش ولا يصاب بالملل أو العجز لأن الكلمات العظيمة والجليلة هى مداره وهى التى تدفع به إلى التعجيز القرآنى الكريم .

وإذا سامرتْ نجوم الذات نجومَ السماء وقالت يا ليل أطل بقاءك

معنا فقد لذ السمر ولذت النجوى فى هزيع الليل بين نجم مطالعه فى أفق النفس وآخر مطالعه فى أفق الكون ، تعالت بالسمر آيات عظام كلما دنت منها قدم ذهنية تعالت أكثر فأكثر. ومثلما نبنى من الأطيان سمرنا ونعلى شرفات آذانها من الطين لا تستقبل غير ردىء السمر ، ما أسعدنا لو تجاوزنا هذا إلى ذاك ورحنا بعيداً عن آذان الشرفات التى شنفتها مادة الطين وظنت أنها الأذن التى تستقبل الصوت الذى لا أصداء له فى وجدان الليل ونجواه فيما بين أفق النفس وأفق الكون وهى نجوى أفق لآخر لم تحمله مادة الطين ولم تسمع شرفاته صداه وحنينه .

ورجعة الإنسان من أسفاره مع أطيان النفس التى مشى عليها بعيداً أفى إمكانه بعد أن شاخ وتقاصرت خطاه أن يقطع الطريق الطويل الذى مشى عليه فى عودته راجعاً بخفى حنين حاملها معه ندماً وحسرة ؟ وحُنَيْن هذا ماذا عنه وعن خفيه ؟ هل حملها بدلاً من أن يحملاه ويقيا قدميه وعورة الطريق فجاء مثلا حضرنى هنا ؟ ممكن ذلك ....

وما كان ممكناً مَنْذا يستطيع أن يحققه وقدماه داميتان حافيتان من أشواك الطريق وحصبائه ، فالجمل إذا أصاب أخفافه العطب رقعها البدوى .وكذا الحصان إذا أصاب حافره عطب حذاه ، أما قَدَماى

فلا أحد يهتم بهما غيرى ، ولكن كيف أستطيع أن أمنحهما الوقاية من العطب .. ؟ هذا الذى حيرنى وربما حير سواى ، فكل إنسان وضع يده على قدمه الذهنية ثم تساءل ألى منك جناح القطاة وفطرتها التى لا تتوه عن عش فراخها فى ظلام الليل وإن كانت المسافة بينها وبين العش مئات الأميال أو آلافها .... ؟

والتساؤل الذى تثيره هذه الحالة : هل لا تزال فطرتى سليمة كفطرة هذا الطائر الجميل ؟ وهنا يتعثر الجواب فى طريق تعثرت فيه فطرتى وزلت بها القدم فى أسفارها الطويلة ، والمشكلة هنا ليست مشكلة بدوى أضاع إبله فى صحراء لا خبرة له بها فوقف حائراً أمام ربة بيته وأطفاله الجياع إلى حليب نياقه التى تطعمهم وتسقيهم . فصحراء البدوى وإبله التى أضاعها فيها لن تطول به حيرته ولن تتسع الصحراء وتتمدد وتكون بلا حدود ، بل قد تحاصرها جبال شاهقة أو مياه غزيرة فتقف أخفاف الجمال الضائعة أمام هذه الحواجز التى لا تستطيع تجاوزها فتعود من حيث أتت ، وفى أثناء الطريق وهو يقص أثرها تقابله فى لقاء لا كلقاء قيس وليلى ، بل ربما أكثر شوقاً وحبا لأن ربة بيته وأطفاله الجياع عادت إليهم الحياة وهدت الفطرة الجمل إلى أن يعود من حيث أتى ولا يتجاوز بالخطر فيغرق فى المياه أو يقف حائراً حيرة رب الإبل أمام الحاجز الجبلى ، أما أنا ، أنا

الإنسان ، أينما سرنا فوق الأطيان والأتربة ، أو فوق مشاهد هذا الكون ومسارحه ، أينما سرنا على قدم من الطين أو على جناح من الخيال والوجدان لا نجد حاجزاً ولا عائقاً يصدنا ويثير فى نفوسنا الحيرة ولكن متى يكون ذلك..؟ يكون يوم يستطيع الإنسان أن يميز بين الجناح وبين قدم الطين ! !

وما أنا فى هذا برام يطارد كل جناح فيكسره أو يعيبه ، أبداً ، آمل ألا أكون إنساناً تائهاً عن فطرتى فى متاهات لا جناح ولا قدم لى فيها ، فقبلتى إلى الله وسيرى إليه لا يقوم على جناح كسير أو قدم جريح ، ولكنى أحمل معى عائلة ذاتية يجب أن أوزع العدل بينها وألا أملأ قدح هذا وأفرغ قدح ذاك فالعدل بين أفراد العائلة الواحدة والاعتدال فى التعامل معها هما الطريق الأمثل إلى تجاوز عثرات الطريق .. ولعل قارئاً يمن علىَّ بقراءته لهذه الرسالة فيرى فى هذا الرمز بالأقداح التى يوزعها رب العائلة بين أفراد أسرته الذاتية توزيعاً سيئًا أو توزيعاً كريماً صورة لا تلحق بعمقها فى مرآة الإنسان كل الشموس والأقمار. فهى أعماق لا قرار لها ولا قاع ولا أحد يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة إلا الإنسان نفسه ، فهو وحده الذى إذا أخذ فى النزول وأخذ فى التعرف إلى أفراد هذه العائلة واحداً واحداً تبين له أنه فى مسؤوليته الإنسانية عظيم القدر إذا هو وعى هذه الحقيقة وأكرم فيها

إنسانيته ، أما إذا نامت فيه عين بصيرته ورقد فاتحاً فاه لسفهاء العائلة يحقنونه بالمياه الكدرة فأمره إلى الله وإلى بشاعة الجثة وروائحها فى هذه الحياة الدنيا .

قد يتساءل متسائل ، أهذا الذى يلقى علينا هذه المواعظ وهذه السفسطة وهذه الصور قد دخل محرابه وصار يملى من مصلاه مثل هذه الحالة التى عليها ملامح نظيفة ؟ وهو تساؤل غير كدر وغير جريح آلمته هذه الألفاظ التى عبرت إليه على وجه هذه الرسالة ، ولكن لعله يوافقنى أنه ما من إنسان علا منبراً من منابر الوعظ وألقى موعظته ثم نزل وقال لمن سأله: أما جاء فى موعظتك هو أنت فى سريرتك وعلانيتك ؟ فقال نعم .. أبداً ما حصل هذا ولن يحصل ، فغير المعصومين من الأنبياء والرسل لكل منهم درجة فى سلم الوعظ والتقى ... !

ليس أمامى إلا أن أمدَّ يدى إلى يده

أبـوىّ :

قال أبو الطيب : (لكل امرىء من دهره ما تعودا)

ولا أدرى أهذه النظرة يقبل بها هذا العصر ولا يعزلها مع ما عزل ويقول لها ممكن أن يكون هذا فى عصر كانت الحياة فيه بطيئة الحركة فى سيرها على الأقدام قد لا يصل الجار إلى جاره إلا فى شهور أو أعوام ، بُعْدٌ بين هذا وذاك ولا بعد النجوم ، قد يكون أبو الطيب فى رحلاته وارتياده لمنازل قبيلة عمرو أو زيد كارتياد غزاة الفضاء اليوم للنجوم والأمور نسبية ومؤقتة فى دقات الساعة عند الحياة .

أميل فى هذه المرة إلى التحول عن جمل أبى الطيب الذى كثيرا ما أردفنى عليه ، لأنى لا آخذ ما قاله هنا حالة ثابتة لا يلحق بها التغيير ، فالزمان وهو الذى تذرعه لنا شمس الضحى والليل الذى يطاردها وتؤقته فى المكان خفقان قلب الساعة وسيرها تتلاعب بحركتها وذبذباتها بالزمن مع المكان تحملها معها مطيتنا التى ما وقف خفها عن السير ثانية واحدة ولا تجاوز جادته طفلة صغيرة تدور حول أمها فى

الفضاء الكونى لتضىء لها الطريق الذى تمشى عليه لبيت هذا أو ذاك توزع بركتها وتؤكد مسؤوليتها مثلما تؤكده كل هذه العوالم العظمى فى هذا الكون .

ليت نظرة أبى الطيب حقيقة ثابتة كحقيقة كل قانون كونى ثابت لا يتغير قبل أن يلحق به أجله ، ليت جملى وليت ناقتى وليت تقاليد قريتى ومضارب خيامى فى الصحراء لم تتغير ولم تقتلعها غِيَرُ الأيام ، ليت ما علمنى إياه دهرى أيام شبابى وأخذته ميراثا عمن مضى لم يلحق به من يقتل أمنياتى وينقلنى نقلة بعيدة فى حساب متغيرات العصر ، ومالم أستطع أن أقول له ماذا أتى بك ماذا تريد منى لن أقبل بك ، ليس أمامى إلا أن أمد يدى إلى يده لنمشى معه كما يهوى ويريد ، مددت إليه يدى ولكنه سحب يده فى كبرياء العصر وقال اتبعنى ! والتبعية ماذا تعنى ؟ بارت مراكبى وبارت منازلى الأولى وقلقت سكينتى وارتعشت شجرتى لأن متغيرات العصر حملت لى معها أمراضها وقلقها ، وعلى ما بقى لدى من أحجار كريمة ورثتنى إياها تقاليد قومى وأصالتهم وعقيدتهم حاولت أن أتكىء ، وهى اليوم التى تقاتل كل متغيرات تتلصص إلى نفسى أو إلى جارى أن يسرقها منى ويعطل جيدى منها ! ! !

بهذا الواقع الذى لم يترك لامرىء ما تعوده كما قال أبو الطيب ،

أندين فلسفته ونقول عنها تجربة ما دخل فى حساب شاعر العروبة وناقد أمراضها أن للحياة مع الإنسان دوراً لم يستطع زمان ولا مكان أن يعقلا هذا الدور ويقولا به اكتفينا .... ؟

تتظاهر الصور على جدار العصر بشكل لا تستطيع فلسفة ولا يستطيع عقل أن يقول هذه كل شيء ـ تداع لا بعد له تلقى على الإنسان قافلته كل ما هى آتية به معها ....

وعلى جناح السرعة الذى لا يقبل أن يقيم لحظة واحدة أو أن يقبل ضيافة من يعد له من شراب الذهن جرعة واحدة يجرى السباق فى كون واسع بين أحصنة الذهن ، ومن المؤلم يا أبا الطيب أن أحصنتنا ـ نحن قومك وأهلك ـ لم تدخل السباق ولم تفكر أن تعد له السرج والفارس . ليت الزمن يغفل عنى ويمكننى أن أذهب إلى مربط حصان فارس بنى عبس ومدفنه الذى بجواره فأذرف الدمع على مدفن الفارس وعلى حافر الحصان وسرجه ، وأتساءل : أين مضرب خيام عبلة لأقول لها أتدرين أن فارسك ، بل فارسنا نحن العرب ، أخذ بيدك ودفع بك فى أحضان الزمن البعيد ، وقال هذه رمز كرامتى ، هذه عرضى هذه حرمتى هذه أنا ، قاتلتُ دون شرفها ودون أرضها ومنازلها الرجال الشجعان ، فهزمتهم لأننى أقاتل دون عرض ودون كرامة ، أما الجبناء فما نازلتهم فى حياتى ، فمعركتهم تدور

دائما فى الفراغ مع الأشباح ، ليتنى أزوره وأسمع منه وأحيى تلك الرسوم والأطلال الراقدة تحت جبل من جبال أودية نجد .... ! !
ليت هذه الأمنية لا تتعطل فى أثناء الطريق إليه ! ! وليتنى أنقلها أيضا إلى منازل حاتم الطائى عند جبلى «أجا» «وسلمى» فأقول له : أين مدفن «ماوية» ربة بيتك ؟ لألقى على مسمعها قصائدك التى تزجرها وتلجم فمها عن لومك فى كرمك لأقول لها : أتعلمين أن بيننا الآن وبين زمانك ومكانك أكثر من ألف وخمسمئة عام ، وأن حاتم الكرم لم ينزل عن مكانه الرفيع ولم يفتر حَبْل الجمل الذى به يطوى البيد جيلاً وراء جيل لأن على ظهره حاتماً الطائى رمز الكرم . فالبطون الجائعة والخاوية والتائهة فى قلب الصحراء التى جاع وجاعت معه ربة بيته هى التى حملته إلينا رمزاً عظيماً قال نبى الرحمة عن ابنته:(دعوها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق) شهادة عظيمة وجليلة من أطهر فم عرفه الإنسان ! !

ليتنى أعرف منازل أمير الصعاليك ـ ذلك البدوى الذى لم يترك لنا مكاناً نعرفه ، هو جوَّاب فى الصحراء من واد إلى آخرـ لأزوره وأنشد قصائده فى الإيثار والكرم وتجريح بدن البخيل الذى أثقلت بطنته قدميه ، ليتنى أجد أطلاله ورسومه لأقول له : إنك معنا فى القرن العشرين ، ولكنه لم يجعل من الصحراء لنفسه رسما لا يعدو

أشباراً ، بل قال : كل صحراء العرب رسمى وأطلالى ، وتوزيعى نفسى عليها وحبى لها واديا أو جبلا شعبا أو روضاً كثباناً من الرمال أو تلالاً مبددة فى قيعان الصحراء من يدرى هى أنا..... لربما جامعاتنا اليوم ومدارسنا قامت على منازله أو رسومه وأطلاله...

والأطلال أو الرسوم هل هى التى لنا فنلتصق بها نذرف الدمع ونقول لفلسفة أبي الطيب : صدقت ، وإذا قلنا ذلك أتتركنا الأقدار ورياح التغيير؟ ليت هذا يكون ! ولكن لكل عصر قدمه ، ولكل إنسان ذهنه ، ولكل عقل مساره ، وهنا يجثو السؤال على ركبتيه أستنهضه ليقف ويلقى بنفسه فى أثناء الطريق فيصرخ من شدة الألم أن لا قدم لى أقف عليها فذهنك الذى منه أتيتُ ليس له جناح طير العصر ، فهو حجر من أحجار الصحراء تحمله على عاتقك مثلما حملت السيول العارمة حجراً ليس له جبل يلتصق به ويحميه من عاديات الطبيعة وأحداثها ، فالتغيير حتى فى الحجر والجبال التى هى الأخرى لم تكن كما يتراءى لنا ميتة ، بل هى تمر مرّ السحاب ، كما قال عنها كتابنا العزيز لا حق بها التغيير ، هنا استرجعت كل سؤال لا أقدام له تحمله ، والاسترجاع أحسِبه عل الاستسلام لقضاء الله وقدره فينا .

وتذبذب الألفاظ فى ذهن إنسان مجدب ذهنه ، أيتركها تعضه

وتأكله أسرابها كما تأكل أسراب الجراد كل اخضرار تحط عليه ؟
لا أدرى ماذا تعنى هذه الألفاظ فى ذهن عاطل جيدهُ من الأحجار الكريمة . وأسراب الجراد إذا هى أكلت الأخضر فى الربيع وفى مزرعة الفلّاح يلحق بها قدرها بعد أن تربع فيأكلها من أكلت ربيعه أو مزرعته بالأمس ، وهنا يكون زرعه أو ربيعه قد عاد إليه ، أما ألفاظ الذهن التى لا ربيع لها ولا اخضرار فتبقى حسرات وقلقا لا طريق لها تمشى عليها ، فالدروب لم تكن دروبه فقد ملكها عليه من استيقظ مبكرا والناس نيام ، أتجاوز فى هذه اللحظة فى حياء من المارة عتبة بيتى وأتركه مشرعاً بابه ومشرعة نوافذه لعل ضوءاً من الشمس أو القمر لا يتجاوزه فأعود إليه ، ومعى أعوام أكابد حملها فى قلب الصحراء وعلى ضوء القمر أو ضوء الشمس أقرأ كتابى الخاص إن كان على صفحاته شىء مقروء ، وظنى أنها أوراق صفراء معتمة ، لونها لون الشفق وصباحها لم يكن صبوح الوجه ...... ! !

وملامة الإنسان لنفسه وساعاته وأيامه ، هل هى فضيلة أم رذيلة ؟ هل معاودة الإنسان للطريق الذى مشى عليه يلتقط أخباره ويناجى على جنباته جاره ويسامر ذكرياته عناء يضاف إلى عناء ؟؟ فقد تكون ذكرياته حزينة على إنسان حثا على وجهها التراب ؟ وقال لها : وداعاً لن أتركك تعيشين بعدى ، سأحملك معى إلى المدفن ،

وعلى مسؤولية الإنسان من الحياة يتراءى لى أن من يزوّر نفسه ويزوِّر مسؤوليته من هذه النفس ويلصقها على حائط التاريخ كذاب كمسيلمة ....

تقضى أمانة العرض والقبول أو الرفض ألا تُلملم الأجيال ، جيلا وراء جيل وتوارى التراب ويقال عنها : هذى مقابرهم .... ثم ننصرف دون أن نقرأهم فى انعطاف الزمن بهم مكاناً وراء آخر ، نقرؤهم لا لنشمت بهم ولا لنعنفهم ولكن لنترحم عليهم ونعتبر بهم وبما كانوا عليه سلبا أو إيجابا . وإذا كان فيهم هامان أو فرعون أو نيرون أو جنكيزخان أو طاغية اليوم والأمس لا نقف صفوفا على طريق الزمن نرجمه بالأحجار وليس غير ، ولكن نعمق النظرة وندرس التربة والبيئة التى نبت فيها هذا النبت الشاذ ، وعندئذ نحرث التربة فلا يستطيع نبت شاذ وكريه أن يتعالى حتى يكون جبلا لا تنبت على جوانبه ولا على سفحه وقمته أشجار مظللة أو نضرة ورحم الله من قال : (إذا رأيتم فىّ اعوجاجا فقومونى) ورحم الله من قال : (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) ...... ! !

كثيراً ما عذلتنى هواجسى وضجيعات ذهنى السقيمات ، وقالت لى : لا تعذبنى بزيارة قلمك لى ، دعنى هاجعة فى منامى ، فليس لى قدرة على أن أغادر هذا المكان فالك ومالى ؟ أأنت على جناح

الفراغ وعلى كثبان الرمال تبنى من خيالاتك أوهاما تظن أن للفراغ جناحا وعلى الرمال يقام البناء ..... ؟ أأصابك ما أصاب العصر فأردت أن يكون لك جناح وأن يكون لك قلم وأن يكون لك ناطحات سحاب ؟ عتاب غاضب أسهرنى ليلة الأمس فعوى الذئب فترددت أصداء عوائه فى خاطرى ، فقلت : أأنت جائع مثل الجائعات عندى ؟ أهذا العواء عتاب لراعى الغنم الذى لم يعد يرتاد منازلك ومعه قطيعه ، تناديه أو لا تناديه ، ترفع القنيب أو تخفضه لن يمر بأرضك قطيع البدوى ، فكلانا جائع يرفع القنيب صوتا وراء صوت فى قلب الصحراء .... وقنيب[1] الذهن هو الذى هرب بالإنسان إلى ما فوق السحاب ، وما بين ذهن وذهن مسافات بعيدة لا يلحق بها جناح كسرت قوادمه عاديات الزمن فبقى دون جناح . وعلى مدرج الفضاء لوَّح لى بيده ذئب العصر ، أن مكانك ، لن أسمح لك أن تلحق بى ، وإن بنيتَ الجامعات من المحيط إلى الخليج .... وإن أكلتْ قلبك وكبدك المحاولةُ أن تكون منافساً ، سبق السيف العَذَل .. لولم يسبقه فى تاريخك لكنت اليوم فى مكانى ، وأنا فى قيعان الأرض أتحسر وأتسكع وراءك تابعا لك أفرغتَ مكانَك

(١) القنيب : صوت الذئب والكلام هنا مجاز .

وقطعت رأسه ، فحق أن أملأه ، فالحياة لا تقبل بالفراغ .... هذه الخاطرة لمعت فى ذهنى فحنثت بوعدى للسقيمات الراقدات فيه فسجلتها هنا قائلاً لمن يلوح لى بيده من الفضاء خاب فألك ، فأنا من أمة لن تموت على جسر الحسرات بل ستمشى عليه فى شجاعة العقل والفكر ! !

وأعتذر لأبى الطيب وأعترف له بقصر نظرى وعجزه أن يرى البعيد فى فلسفته وفى نظرته للحياة فقد قاسها بذراع وعيه واستشرف البعيد ، وما أخطأ حين قال : «لكل امرىء من دهره ما تعودا» ولكن أنا الذى أخطأت فى فهم بعد هذه الرمية التى ما أخطأت كبد الحقيقة ، هل يقبل سيدى أبو الطيب عذرى وتجاوزى تجاوزَ قصير طاوله قبلى .... ؟

ماذا ربح إذا خسر نفسَه ؟

أبويّ :

ذهبت المقاييس الضوئية والمراصد العلمية إلى أدنى تلاع هذا الكون وشعابه وعادت إلينا شائبًا شعرها ، فالحاجب فيها هل ظلل حدقة العين ووقاها من رمد العصر؟ أتساءل وقدماى غائصتان فى الرمال وعيناى حائرتان فيما بين قمر السماء وصاحبة الهودج ، هو هناك يمشى على قدميه فى رحلات زمنية ، وعاشقها يسائل الليل والنهار عن منازله التى يتبدى فيها القمر على قارعة الطريق الكونى فى صورته الجميلة ليصعد الجبل فى هزيع الليل ينظم أشعاره فيمن تيّمه حبها ، والسؤال الذى يرمى بثقله على كبد الإنسان وإحساسه وشعوره : من الجميل حقا ؟ من المنيع من آفة التبعية والتبعثر؟ أهو أم هى ؟ هو قال عنه عصر غزو الفضاء إنه حجر يسبح فى الفضاء يمشى على جادة دون إرادة أو اختيار أو حتى نفس ، يشم به رائحة الجمال الكونى والإبداع العظيم للخالق العظيم . أما هى أما الإنسان فهو الذى إذا رمينا السبب فى أعماقه تذبذب فى يد العقل والذهن وتأرجح به القلق

والضجر فى أعماق المجهول ، وهنا تكرع النفوس الظمأى فى قداح كونية كل قدح ترده نفس لوامة أو آمرة أو ناهية ، قلقة أو مطمئنة . تتباعد الخطى أو تصير لزجة فيما بينها ينهار البناء النفسى أو يتماسك وتعلو شرفاته حمائم الدوح تغنى له لحن الأمان والإيمان ، وعلى قدر مياه الوعى يكون الرى . والإنسان الذى هو أنا وأنت وهى مقيم من آلاف السنين أو ملايينها ضيفًا على هذه الأرض . هو اليوم غيره بالأمس يحار فى ملامحه اليوم أبوه وأمه وحليلته وجاره وجارته ، يلوذ بالتقية أينما اتجهت به مطاياه فى التعامل ، لو نطقت القبور الدوارس بأخبارها واستنطقت السابحات فى هذا الكون من الذى تذوق طعم الجمال وعبرت عنه روحه ؟ أهو الذى أتى إليكن على جبل من الحديد ؟ أم هو الإنسان الذى أتى بروحه وعاطفته وخياله ، ولم يلامس حجر القمر بيده الترابية ويقل هذه قصائدى ، وهذه أشعارى ، وهذه ملامح وجهى الذى لم يغتسل للصلاة ؟ يتذبذب الخيال عندى الآن ويراوغ النفاق الذاتى عن مجابهة الحقيقة على صعيد طاهر لم تفسق به مدنية العصر وحضارته التى أربكت أغلب البشر وفتنتهم عن أنفسهم ، وراحوا بعيدًا فى عدو لاهث وراء الفراغ والضياع . لم يعد فى يده سبب يقيه من السقوط فى الهاوية ، فكل من خرج عن نفسه وعن مصادر الخير فيها ونادى على هذه النفس

من يشتريها بأبخس الأثمان ماذا ربح إذا خسر نفسه ؟ والشراء والبيع فى القيم وفى الكرامة فى حانة الساقى وبيت الرقيق الأبيض هاجس يؤرق الإنسان العربى ويعصر فى قدح الألم تاريخًا طويلاً وحضارة وهداية ، وقدح فيه عصارة الألم وفيه الأحزان والآمال ، هو اليوم تتداعى عليه الطلقات الجائرة من كل حدب وصوب ، خوفنا عليه أن يتبعثر وينكسر فيضيع ما فيه من رجاء وأمل . أمنيتى الوحيدة أن يصعد الشاب الملىء حيوية ونشاطا عقليا قمة الجبل الذى أذرف الدمع على الورق تحت سفحه مقيدا بشيخوختى فيرى أصالته وجذوره البعيدة وقيمه وإذا رآها وقدر دوره الإنسانى والحضارى يتبدى فى لباس الرسالة الإنسانية التى فيها عظمة البناء البشرى وتحصينه من الخلل الذاتى ، ولعل من لم يصعد الجبل فى حياته ولم يقرأ التاريخ ولم يقرأ النماذج العظيمة فى هذا التاريخ يظل يتكسع فى كسل عقلى وروحى وراء ذيل هذه الحضارة وفضلاتها التى تخدر الجسد وتجعله كثيبًا من الرمال لا يشبع ولا يرتوى لأنه رمال يومها آت مع الرياح ..... !

وحتى لا أودع الحياة وفى عينى دمعة حائرة لا تأخذ مكانها فى ذيل هذه الرسالة أحدق فى عالمينا العربى والمسلم وفى عالم الآخرين الجائرين فماذا أرى ؟ أراهم يقدمون لأمتى الكبرى بسخاء لئيم أحدث

ما لديهم من أسلحة الدمار والموت ، ولسان حالهم يقول : أحفروا مدافنكم يا عرب ويا مسلمون ، يا من لا وعى لديهم ولا إحساس بما تعنى الحياة ويعنى الموت الذى تستورده عقول مريضة ووعى متخلف ، لتقول للحياة لتنبجس كل عين حار الدمع فيها على جيب الزمن ، لعله يسق آمالا عطشى إلى الرى فتنبت التربة التى فى أعماقها الخصب التاريخى والحضارى القائد الشاب خالد بن الوليد وإخوانه فى التاريخ ، أمنيات أيقظتها من مرقد الشيخوخة طلقات الموت والدمار .

فى كبد أمتى يد ملوثة بالجهل وبأوساخ هذه الحضارة وشعاراتها ومبادئها الفاسقة وروائحها المعفنة ، قطع الله هذه اليد وشلت فإنها لم تكن يدًا عربية ولا يدًا مسلمة وهى تغتال القيم والمثل وتحرق الرطب واليابس .

معذرة لخيال كلما حاولت أن يحلّق فى سماء النفس وآفاقها انكسر جناحه فسقط وسط المعركة المليئة بأشباح الفناء والموت ! !

كلمة ختام

لا أدرى ويومى هذا يعوج رقبته إلى يومى الأول ، إلى يوم تكونت لى ذاكرة تلتقط الحب من حوصلة الزمن ، أأنا اليوم قادر على أن أرتاد مجاهل الذات ومجاهل الزمن لأعود إلى القبض على جافلات ضلّلن الذاكرة ولم يقبلن بدخول حوصلتها فى كل ماكتبته ... ؟

أتساءل لا لأنى خائف من المجهول أو فاقد الأمل فأم الفراخ يوم تنهض من عشها مبكرة خالية حوصلتها .. ألا نرى فى هداية الله لها فى بكورها إلى أن تلتقط الحب من حوصلة الحياة لتمد بها فراخها الصغار تنشيطا للكسل الذهنى فينا وتدريبا لخطاه على مجاهل هى فلوات واسعة فيها ربيعنا وفيها صيفنا وفيها مسارح قطعاننا العقلية والفكرية ؟ لا أحط رحلى عن السير حتى تقول لى الحياة : أنخْهُ فقد أضناك المسير !

و « ودِّعْ هُريرةَ إن الركبَ مرتحلُ » !

والرحلة هى العزاء الوحيد لإنسان عاش هذه الحياة بخيرها وشرها

بآلامها ومسراتها بمتناقضاتها وأحلامها الجميلة والمزعجة ، وحتى يتعالى قدر الإنسان مع كرامته فى نفسى لا أظننى تجاوزت إلى ذلك قدم الأمل وأطراف أصابعه ، فما سرحت فى الفلوات بقطيعى أحدو له ، وهو يرزم بالحنين فى عقلى وذهنى إلا تكورت مسارح الخيال عندى وصارت إلى خيمة أستريح فيها من وعثاء السفر.

وإذا حاولتُ أن تنقشع الخيمة وتترك لى مع الكون والفضاء والنجوم والشموس حلمى الجميل علاها السأم والقلق ، وهنا يقع الانفجار من شدة الضغوط النفسية فيظل كل شىء مبعثرًا فى فضاء النفس إلى أن تستعيد القيادة تنظيم الخلل والتبعثر ، وهكذا أنا مع التجربة ومع الهموم والمسرات ، فإذا كانت هذه الرسائل قد جاوزت خيمتى وتبعثرت من شدة الانفجار الذاتى فلن تكون فى مادتها فى لون واحد أو ملامح واحدة لأن مجراها لم يكن كمجرى النهر منسابًا من منبعه إلى مصبه فى لونه وعذوبته وفرح الأرض الميتة به . لو كان الإنسان محدد الملامح مرئيًا منبعه ومصبه ولونه وطعمه لما رأيناه اللغز المحير الذى نجالسه ونخاصمه ويخاصمنا ويلقى قصائده علينا وفلسفته وأفكاره وأحكامه على الأشياء فى صور ما كانت أفراد عائلة واحدة وإن كان النسب فى الأب والأم مشتركا فما قرأناه وما علمتنا إياه الحياة وأرتنا ملامحه فى صور شتى لا أنساب بينها فى الخطى الذهنية

والعقلية ، لا يترك مكانا فارغًا من الإيمان بالأسمى عند إنسان قيل له تأمل فتأمل ـ قيل له فكر ففكر ، قيل له اعقل فعقل ، ولكى لا أسلم هذه الرسائل إلى قارىء لا يهوى الجدل الذاتى ولا يقبل به حنينًا فى ذاته لأنه مشغول بشؤونه الخاصة ومعتقده فيرميها فى سلة المهملات من نفسه أستميحه العذر إذا تجاوزته إلى سوق عكاظ فى نفسى ، وهى سوق ذاتية ، أنا شاعرها وأنا خطيبها وأنا مستمعها ، من أراد أن يشاركنى فى هذه السوق فعلى الرحب والسعة ، ومن لا يريد ذلك فلن أعترض جمله وأعقله فى وقاحة لا تحترم الآخرين .

نعم ، وفى نفس الوقت لابد لى فى هذه الخاتمة أن أقرر عقيدتى وإيمانى بالله وسط عالم تضطرب فيه المعتقدات والأفكار والمذاهب ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ورسله ، كما لا أفرق بين أصحابه (ص) ولا أقدح فى هذا وأمدح ذاك ، لكل منهم منزلته من رسول الله (ص) ومن خدمة الإسلام والمسلمين ، وهنا تتجافى بى هذه العقيدة عن الخرافة وعن إعطاء أى مخلوق حقًا من حقوق الله ، لائما كل اللوم وراثيًا كل الرثاء لكل من ضعف إيمانه بالله أو طلب معونة من غير الله فكل الفلسفات الخرافية وكل القبور الدوارس أمرها إلى الله ولا شىء يؤلم الإنسان المسلم اليوم مثل أن يرى أمة محمد فى أكثريتها : إما خارجين عن الإسلام

وعازفين عنه ، أو خرافيين ما رأوا هذا العصر ولا قدروا أسراره فراحوا يلملمون من مواريثهم الرديئة ومن سوء فهمهم للرسالة الإنسانية خرقا بالية لا تستر العورة ولا تجمل إنسانًا ، وعلى قدر إحساسي بالمسؤولية من نفسي أرى أنه لا معنى لكرامة الإنسان عندى إلا حين ينتفى الخوف والرجاء إلا من الله ، حين أستخلص إيمانى بالواحد الأحد من فوضى المذاهب والعقائد الخرافية والجحود والنكران ، فإنسان تتوه به تخيلاته وخرافة الآباء والأجداد فى مضيعة عن التوحيد ، لابد وأن يكون فريسة للأوهام والضياع مهما كبرت حلقات مجلسه ، وظن أنه ماش على المحجة البيضاء ....

فدين الإسلام دين التوحيد ، وليس دين التبدد والتوزع والمذاهب التى تمس التوحيد وتمس هدف الرسالة الكريمة . ليس للإسلام إلا نبي واحد وقرآن واحد وسنة واحدة ... فالذين فرقوا المسلمين ووزعوهم على أفواه الطرقات ليت القطيع الذى يمشى وراءهم من مئات السنين دون وعى يتركهم واقفين فى الفلاة وحدهم لتفترسهم الذئاب التى غابتها رؤوسهم وليت الإنسان الشارد وراء الخرافة أو وراء هذه الحضارة التى يفوح جسدها بالعفونة ـ وإن أفرزت ذاكرةُ إنسانها الاكتشافات العلمية ـ يدرك ما معنى الموت والحياة وما معنى الصحة النفسية والصحة الجسدية فبإدراكه يقوم

التوازن بين الجسد المادى البحت وبين الذهن والعقل الذى أخذ اليوم مساراً فى هذا الكون بظاهرة لامراء فيها ماعرفها الإنسان منذ وجد على هذه الأرض .

أمنيات تبنى الأمل ولا تهدمه ، أمنيات لا جناح لها فتطير ولا قدم لها فتسير ، هى قعيدة أوراق وشيخوخة ، كلما حاولت الخطو عجزت عن المسير لثقل فى القيد الذى قيدها به الزمن ....





فهرس المقالات

الجزء الثانى

رقم الإيداع : ٨٧/٥٧٠٦
الترقيم الدولي : ٨ - ١٢٥ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

هذا الكتاب

لم أكد أقرأ من هذا الكتاب فاتحته
حتى أحسست وكأنى خطوتُ بقدمى فى عالم مسحور ،
يستضىء بضوء القمر الحالم
الذى يُشيعُ أمام البصر ما يشبهُ أن يكون أحلام الحالمين،
إذ أحسست كأنّ الذى أمامى ليس كلماتٍ مسودة
وإنما هو ضروبٌ من الحنين الخائف. ومن القلق المتأرق ومن الطموح المتوثب.
إن هذا الكتاب بكل ما ورد فيه من خواطر
عما أفضتْ به نفسُ كاتِبه أمام أبويه،
إنما هو ضربٌ جديد من السيرة الذاتية،
فلقد رأينا وقرأنا قبل ذلك كثيرا
من سير العظماء التى ترجموا بها عن ذوات نفوسهم،
ولكننا قلما وقعتْ أبصارنا على سيرةٍ ذاتيةٍ جاءتْ بالصورة
التى جاءت بها سيرة الكاتب
عن نفسه فى هذا الكتاب.

د . زكى نجيب محمود